نحو منهج شرعي

في

تلقي الأخبار وروايتها

إعداد

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

ح دار السليم للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصويان، أحمد بن عبد الرحمن

نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار وروايتها - الرياض

٩٦ ص؛ ١٧× ٢٤

ردمك: ٩ - ٤٣٤ - ٣٨ - ٩٩٦٠

١ - الإعلام الإسلامي . ٢ - الشائعات . ٣ - الأخبار .

أ - العنوان

ديوي ٢١٤,٣٠١١٩ ٢١/٣١٣٦

رقم الإيداع ٢١/٢٨٣٢ / ٢٣

ردمك: ٩ - ٤٣٤ - ٣٨ - ٩٩٦٠

نحو منهج شرعي في

تلقي الأخبار وروايتها


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

[آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فهذه رسالة مختصرة بعنوان: «**نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار وروايتها**»، وهي عبارة عن خواطر جالت في نفسي، ومشاعر ترددت في قلبي، بسبب الأحداث التي أشهدها أو أسمع عنها بين يوم وآخر.. والهدف من الكتابة في هذا الموضوع هو تذكير القارئ الكريم والتعاون معه على تمييز ما يقرأ وما يسمع من هذا الركام الهائل من الأخبار، بتأصيل شرعي موثق.

وقد بدأت هذه الرسالة بتمهيد مختصر حول: الخبر وأهميته.

ثم قسمت الرسالة إلىٰ بابين :

الباب الأول : آفات تفسد الأخبار .

الآفة الأولىٰ : الكذب وخطورته .

الآفة الثانية : الإشاعة .

الباب الثاني : ملامح المنهج الشرعي للتعامل مع الأخبار .

أولاً : التثبت في الأخبار .

ثانيًا : حسنُ الظن .

ثالثًا : سلامة الصدر .

ثم أنهيت البحث بخاتمة مختصرة .

وأعترف بادئ ذي بدء أنني لم آت بشيء جديد ، وإنما هي أمور بدهية أحببت أن أذكّر بها وألفت النظر إليها . . . ومن المؤسف حقًا أننا نحتاج في كثير من الأحوال إلىٰ التأكيد علىٰ الأمور البدهية ! ! ولا أزعم أني وفيت الموضوع حقه من البحث والدراسة ، ولكن لعلها إضاءة في هذا الطريق ، وتشجيع لأهل الفضل والقدرة علىٰ الاهتمام به ودراسته مرة أخرىٰ ، ولا شك أن معالجة هذه القضية لا يتأتىٰ من خلال دراسة وحيدة ، بل لابد من تعدد الطَّرْق عليها علَّها تتضح .

وأقول كما قال الجاحظ : « . . . فإن نظرت في هذا الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهب مذهب التعنت ، ومذهب من إذا رأىٰ خيراً كتمه ، وإذا رأىٰ شراً أذاعه ، وليعلم من فعل ذلك أنه قد تعرَّض لباب إن أخذ بمثله وتعرض له في قوله وكتبه ، أن ليس ذلك إلا من سبيل العقوبة والأخذ منه بالظلامة ، فلينظر فيه علىٰ مثال ما أدَّب الله به ، وعرف كيف يكون النظر

والتفكير والاعتبار والتعليم، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣] . . . »[(١)] .

وأسأل الله عز وجل أن ينفعنا بما علمنا، ويجعله حجة لنا لا علينا. . . كما أتقدم بخالص شكري وامتناني لجميع إخوتي الأحباب الذين أكرموني بجميل ملاحظاتهم وتوجيهاتهم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

وكتبه

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

الرياض ١١٤٩٦ ص.ب: ٢٦٩٧٠

---

(١) الحيوان (٤/ ٨٤).

التمهيد

الخبر وأهميته:

قال العلاَّمة ابن منظور: «الخَبَرُ بالتحريك: واحد الأخبار. والخَبَرُ: ما أتاك من نبأ عمَّن تستخبر، ابن سيده: الخبر: النبأ، والجمع أخبار، وأخابير جمع الجمع. فأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، فمعناه: يوم تزلزلُ تخبر بما عُمل عليها، وخبَّره بكذا وأخبره: نبأه، واستخبره: سأله عن الخبر وطلب أن يخبره، ويقال: تخبَّرتُ الخبر واستخبرته، ومثله تضعَّفْتُ الرجل واستضعفته، وتخبَّرت الجواب واستخبرتُه، والاستخبار والتخبُّر: السؤال عن الخبر، وفي حديث الحديبية: أنه بعث عينًا من خزاعة يتخبَّر خبر قريش أي: يتعرَّف، يقال: تخبر الخبر واستخبر إذا سأل عن الأخبار ليعرفها»(١).

ونحن نعيش عصراً تعددت فيه أدوات الاتصال، وتنوعت فيه وسائل الإعلام، وبفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم بتوفر الإمكانات العلمية والتقنية أصبح تبادل المعلومات يسير بسرعة مذهلة جداً، فالخبر ينتقل شرقًا وغربًا في أقصر مدة متوقعة، فتلاشت الحدود والمسافات، وكأننا نعيش في قرية صغيرة لا يخفى منها شيء.

وفي كل يوم بل في كل دقيقة يطرق سمع الإنسان عشرات الأخبار المتنوعة في شتى مجالات الحياة، يختلط فيها الغث بالسمين، ويلتبس الحق بالباطل، وتضيع

(١) لسان العرب (٤/ ١٢) مادة: خبر.

الحقيقة بالخيال حتىٰ أصبح الإعلام ـ بألوانه المختلفة ـ أخطر وسيلة يمكن أن تصوغ فكر الإنسان وتغيِّر من تصوراته واتجاهاته الفكرية والسلوكية.

ولن أتحدث في هذه الرسالة عن موازين قبول الأخبار التي تبثها وسائل الإعلام العالمية، فلهذا الفن أهله ورجاله . . . ولن أتحدث كذلك عن الأخبار التي يثيرها الدهماء بين عامة المسلمين . . . ولكني أحب أن أتحدث عن طُرق تمييز الأخبار التي تنتشر بين أوساط العلماء والدعاة وطلاب العلم وجميع العاملين في حقل الدعوة الإسلامية؛ لأنني أفاجأ بين يوم وآخر بكم هائل من الأخبار تنقل عن العلماء والدعاة . . ثم تبنىٰ ردود أفعال متباينة حيال هذه الأخبار . . . وكثير من هذه المنقولات ـ بعجرها وبجرها ـ تثير ضغائن النفوس، وتحيي النفس الغضبية عند الإنسان، وتمزِّق العلاقات الكريمة بين المؤمنين، وتصبح هذه الأخبار بعد ذلك إحدىٰ معاول التدمير وأدوات التخريب والهدم، بسبب قلة التحقيق والتثبت. وكما قال العلامة ابن خلدون رحمه ا tK تعالىٰ: «فالتحقيق قليل، وطَرْفُ التنقيح في الغالب كليل، والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل»(١).

وأحسب أن الذي يتطلب منا العناية والحرص، ويقتضي مزيداً من البحث والنظر حتىٰ لا تزل القدم في طريق شائك هو: كيف نتلقىٰ الخبر ونفهمه فهمًا جيداً، ونصوغه صياغة دقيقة، ثم كيف ننقل هذا الخبر بكامل الصدق والأمانة . . ؟!

ألا ما أكثر الناس الذين يحملون في أيديهم أخباراً، حتىٰ إذا سألتهم: من أين لكم هذه الأخبار . . ؟ أُسقط في أيديهم، وتلعثمت ألسنتهم، وتباطأت

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٤).

كلماتهم . . ولم يجدوا جوابًا مقنعًا ـ حتىٰ لأنفسهم ـ لأنها في الحقيقة ليست ثابتة من مصادر دقيقة ، بل هي أوهام تجمعت من هنا وهناك . . !! .

قال العلامة ابن خلدون رحمه ا ﷻ تعالىٰ : « . . . لأن الأخبار إذا اعتمد فيها علىٰ مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب . . . فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلَّة القدم والحيد عن جادة الصدق ، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها علىٰ مجرد النقل غثًا أو سمينًا ، ولم يعرضوها علىٰ أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف علىٰ طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط »(١) .

وللناس طرائق شتىٰ في تحمل الأخبار ونقلها ، ويتفاوتون في ذلك تفاوتًا كبيراً ، فإن نقل الخبر فن دقيق لا يحسن الخوض في غماره إلا قلة من الناس ؛ فهو يحتاج إلىٰ فطنة وتيقظ . . . ثم إلىٰ حفظ وتثبت . . . ثم إلىٰ صدق وأمانة .

من أجل هذا كان لزامًا علينا أن ندرس الأخبار ، وطرق تمييزها ، وكيفية نقلها ، حتىٰ تستقيم جميع أحوالنا علىٰ المنهج الشرعي الأصيل ، الذي ارتضاه ا ﷻ لعباده المؤمنين ، خاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن ، وانتشر فيه الاختلاف والتنازع .

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٩ ـ ١٠) .

الباب الأول

آفات تُفسد الأخبار

الآفة الأولى: الكذب وخطورته

الآفة الثانية: الإشاعة

الآفة الأولى : الكذب وخطورته

مواضع الزلل والتقصير عند الإنسان لا تكاد تنحصر في جانب دون الجوانب الأخرىٰ، ولكن من أخطر وأسوأ ما يقع فيه الناس : الكذب، فهو صفة ذميمة، تظهر فيها الخيانة وتسقط بها المروءة، والكذب يقلب الأمور، ويُغير الواقع، ويزور الحقائق؛ فتصير العيوب محاسن والمحاسن عيوبًا، ويجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسنًا، وينسب للناس خلاف ما قالوه أو فعلوه.

ويبدو أن الكذب حينما يطفو علىٰ السطح يكون ناتجًا عن تراكم مجموعة من الأخلاق المذمومة، كقلة الدين والورع، وكالحقد والحسد وغيرها، كما أن الصدق ناتج عن عفة النفس، ونبل المقصد، وإرادة الحق، وحينما تترفع النفوس عن أهوائها وشهواتها، تنساب عفة وطهارة لا ترجو إلا ا tK والدار الآخرة.

قال ا tK تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾.

[**التوبة** : ١١٩]

وقال الله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾ [**النحل** : ١٠٥].

وعن ابن أبي مُليكة أن عائشة ـ رضي الله تعالىٰ عنها ـ قالت : «ما كان خُلُق أبغض إلىٰ رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله ﷺ الكذبة، فما يزال في نفسه عليه حتىٰ يعلم أنه قد أحدث منها توبة»(١).

(١) أخرجه : الإمام أحمد (٦/ ١٥٢)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الصدق والكذب (٤/ ٣٨٤) وقال : هذا حديث حسن. قلت : وإسناده صحيح.

والغالب أن الذي يكذب كذبة واحدة يتبعها بثانية وثالثة. . لكي يُقرِّر ما قاله أو نقله ويؤكده، ومن جميل ما قاله زياد ابن أبيه في خطبته المشهورة بالبتراء: «إن كذبة المنبر بَلْقاء مشهورة، فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ، واعلموا أن عندي أمثالها»(١).

ثم لا يزال الرجل يكذب ثم يكذب. . . حتى تصبح هذه الصفة ملازمة له والعياذ بالله! فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يُكتب عند الله كذابًا**»(٢).

وعند ملازمة الكذب ومداومة الاتصاف به، يُصبح المرء متصفًا بصفة من صفات أهل النفاق، قال رسول الله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان**»(٣)، ومن عظيم تربية النبي ﷺ لأصحابه على الخلق الكريم والمنهج القويم، أنه حث على ترك الكذب حتى في حالة المزاح، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»(٤).

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٤، ٤٣٢)، والبخاري في كتاب: الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٠/ ٥٠٧)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق (٤/ ٢٠١٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٧)، والبخاري في كتاب: الإيمان، باب علامة المنافق (١/ ٨٩)، وفي كتاب: الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد (٥/ ٢٨٩)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب بيان خصال المنافق (١/ ٧٨).

(٤) أخرجه: أبو داود في كتاب: الأدب، باب في حسن الخلق (٤/ ٢٥٣)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٧٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إنك تداعبنا؟! قال: «**لا أقول إلا حقًا**»(١).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إياكم والكذب؛ فإن الكذب مجانب الإيمان»(٢).

وقال مطرِّف بن طريف: «ما يسرني أني كذبت كذبة وأن لي الدنيا كلها»(٣).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ: «اعلم أن مذهب أهل السنة أن الكذب: هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، تعمَّدت ذلك أم جهلته، لكن لا يأثم في الجهل وإنما يأثم في العمد»(٤).

وقال الإمام النووي أيضًا: «وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة علىٰ تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب، وإجماع الأمة منعقد علىٰ تحريمه مع النصوص المتظاهرة»(٥).

وقال أبو محمد ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «ما أحببت كذاباً قط، وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيماً وأَكِلُ أمره إلىٰ خالقه ـ عز وجل ـ، وآخذ ما ظهر من أخلاقه، حاشا من أعلمه يكذب، فهو عندي ماح لكل محاسنه، ومُعَفّ علىٰ جميع خصاله، ومذهب كل ما فيه، فما أرجو عنده خيراً أصلاً»(٦).

وقال أيضاً: «فالكذب أصل كل فاحشة، وجامع كل سوء، وجالب لمقت

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٠، ٣٦٠)، والترمذي في كتاب: البر والصلة، باب ما جاء في المزاح (٤/ ٣٥٧)، وقال: حسن صحيح، قلت: وإسناده حسن.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٥).

(٣) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري المالكي (٦/ ٢٨٠) رقم (٢٦٣٥).

(٤) الأذكار للإمام النووي (ص ٣٢٦).

(٥) الأذكار للإمام النووي (ص ٣٢٤).

(٦) طوق الحمامة، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي (١/ ١٧٣). ت: د. إحسان عباس.

الله عز وجل»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «بالصدق في كل الأخبار، والعدل في الإنشاء من الأقوال والأعمال تصلح جميع الأحوال.. وهما قرينان، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾.

[**الأنعام**: ١١٥] (٢).

وقال ابن تيمية أيضًا: «الصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها»(٣).

وقال أيضاً: «العدل هو الذي يخبر بالأمر علىٰ ما هو عليه، لا يزيد فيكون كاذباً، ولا ينقص فيكون كاتماً»(٤).

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «فإن الله سبحانه فطر القلوب علىٰ قبول الحق والانقياد له والطمأنينة له، والسكون إليه ومحبته، وفطرها علىٰ بغض الكذب والباطل والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطر علىٰ حالها لما آثرت علىٰ الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره»(٥).

وقال أيضاً: «إياك والكذب؛ فإنه يفسد عليك تصور المعلومات علىٰ ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يصور المعدوم موجوداً، والموجود معدوماً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، والخير شراً، والشر خيراً، فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له، ثم يُصور ذلك في نفس المخاطب

(١) المرجع السابق (١/ ١٧٥).
(٢) الحسبة في الإسلام (ص ٧).
(٣، ٤) مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٧٤، ٨٤).
(٥) مدارج السالكين (٣/ ٤٧١).

المغتر به الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه.

ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة، نزَّاعة إلىٰ العدم، مُؤثرة للباطل. وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي؛ فسدت عليه تلك الأفعال وسرىٰ حكم الكذب إليها، فصار صدورها عنه كمصدر الكذب علىٰ اللسان، فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله»(١).

وقال أيضاً: «ما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ولامفاسدهما بمثل الكذب»(٢).

وقال الحافظ الذهبي - رحمه الله تعالىٰ - تعليقًا علىٰ كلام أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه الذي ذكره آنفًا -: «صَدَق الصدِّيق؛ فإن الكذب رأس النفاق وآية المنافق، والمؤمن يُطبع علىٰ المعاصي والذنوب الشهوانية لا علىٰ الخيانة والكذب»(٣).

الكذب من أجل المصلحة:

من أعجب مكائد الشيطان - أخزاه الله تعالىٰ - علىٰ بعض الدعاة: أن الواحد منهم قد يفتري الكذب قصداً علىٰ بعض إخوانه الدعاة انتصاراً لنفسه أو لفئته، ويسوِّغ لنفسه هذا المزلق الخطير من باب: «مصلحة الدعوة»!!

فقد يتهم صاحبه بالجهل... أو بقلة الدين... أو حتىٰ بالعمالة.. وهو يعلم يقينًا أنه منها بريء، ولكن مصلحة الدعوة - بزعمه - تقتضي هذه المخادعة!

قال الشاعر أحمد شوقي - رحمه الله تعالىٰ - في قصيدته الموسومة بـ «رمضان ولَّىٰ»:

---

(١) الفوائد (ص ١٥٢).
(٢) المرجع السابق (ص ١٥٣).
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ٣).

وإذا أراد الله إشقـاء القـرىٰ جـعـل الهـداة بها دعـاة شقـاق

ولعل الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ كان يعاني من هذا الانحراف في بعض من حوله من الدعاة . . فها هو ذا يقول : «إن كلمة (مصلحة الدعوة) يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ؛ لأنها مزلة ومدخل للشيطان يأتيهم به حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص . ولقد تتحول مصلحة الدعوة إلىٰ صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل»[١] .

وكيف يكتب الله عز وجل لدعوة القبول في الأرض وقد بنيت علىٰ الكذب والمخاتلة . . . ؟!

ولكن هذا البلاء يذكرني بجهلة المتصوفة الذين يلفقون الأحاديث المكذوبة علىٰ النبي ﷺ ثم يقولون : نحن نكذب له لا عليه . . . . !!

ولست أدري أي سخف هذا . . . بل أي ضلال[٢]؟!

وإذا كان قلب الإنسان عامراً بالإيمان وطاعة الرحمن ؛ فهل يمكن أن يزل هذه الزلة . . . ؟!

إذا كان الداعية يُريد أن يُعبِّد الناس لله لا لطائفته ؛ فهل يفتري هذا الافتراء . . ؟!

ولكن رحم الله محمد بن كعب إذ يقول : «ما يكذب الكذاب إلا من مهانة من نفسه»[٣] .

(١) منهج الدعوة في ظلال القرآن (١/ ١٧٨) جمع : أحمد فائز .
(٢) من المضحكات أن «غلام خليل» كان يتزهد ويهجر الشهوات ، ومع ذلك كان يضع الحديث ، وقيل له عند موته : حسِّن ظنك . فقال : «كيف لا! وقد وضعت في فضل عليّ سبعين حديثاً؟!» . انظر : تدريب الراوي للإمام السيوطي (١/ ١٨٥) .
(٣) المعرفة والتاريخ للإمام البسوي (١/ ١٩٠) .

وحب الظهور والغلبة ظاهرة نفسية توجد عند كل أحد. . . ولكنها توجد بدرجات متفاوتة، فمن الناس من روَّض نفسه على مراقبة الله سبحانه وتعالى، وفطمها عن الأهواء الشخصية. . . فهو خفي تقي نقي، ومن الناس من تزداد عنده هذه الظاهرة لدرجة تدعوه للتنازل عن بعض مبادئه ومُثُله وأخلاقه؛ تحقيقًا لهذه الرغبة المسيطرة على نفسه، وكما قال المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلامُ

ونظير هذا وأكثر منه خفاءاً: أن بعض الصالحين قد يستجيز افتراء الكذب أو روايته عن بعض ذوي الأفكار الهدَّامة كالعلمانيين أو الماركسيين، أو غيرهم من أعداء الدين. . من أجل أن يفضحهم أو يقلل من قدرهم عند عامة المسلمين. . ولسان حال هؤلاء الصالحين - هداهم الله - يقول: الغاية تبرر الوسيلة(١).

وهذا الدين - ولله الحمد والمنة - دين رباني جعل الله - عز وجل - غاياته أسمى وأجلَّ الغايات، ثم جعل وسائل تحقيقها أنبل وأعف الوسائل. . . ولن يكتب الله عز وجل النصر والتأييد لدعوة تقوم على غير الأسس والمناهج التي قامت عليها دعوة النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. . واستخدام أي

---

(١) مخازي هؤلاء المنحرفين ومفاسدهم واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وهي كفيلة بأن تُسقط من قدرهم ومكانتهم عند عامة المسلمين، وأما افتراء الكذب عليهم فقد يكون لهم لا عليهم، وورقة رابحة يستخدمونها لتشويه صورة مخالفيهم وتحسين صورتهم أمام شرائح المجتمع المحايد، وتبرئة أنفسهم مما هو ثابت عليهم أصلاً، ويجعلون كل ما نسب إليهم - صدقاً كان أو كذباً - كذباً عليهم -، ومن المهم جداً أن نجعل نصب أعيننا عند مواجهة الخصوم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨]، قال ابن تيمية: «فالكذب على الشخص حرام كله، سواء كان الرجل مسلماً أو كافراً، براً أو فاجراً، لكن الافتراء على المؤمن أشد، بل الكذب كله حرام» مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٢٣).

وسيلة مخالفة ـ ولا أقول مختلفة ـ للمنهج الرباني الذي احتذاه رسول الهدىٰ ﷺ في دعوته للناس كافة إنما هو انكفاء عن الحق وإساءة إليه، حتىٰ لو كانت هذه الوسائل المخالفة تجلب بعض المصالح والمنافع القريبة فيما قد يبدو لبعض الناس وذوي النظرات القصيرة والنتائج الهشَّة!

وقد قرر أئمتنا وأسلافنا الكرام بأن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها.

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** ﴾ [**غافر**: ٢٨].

وكما قال الأديب الكبير مصطفىٰ صادق الرافعي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في وصف الأمة المفلحة: «إن الأمة لن تكون في موضعها، إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها، وإن أول ما يدل علىٰ صحة الأخلاق في أمة: كلمة الصدق فيها، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذبًا وهزلاً ومبالغة»(١).

ذكر بعض الحقيقة وإخفاء بعضها:

وإن من أخطر أنواع الكذب وأشدها فاعلية وأكثرها خفاءاً: ذكر بعض الحقيقة وإخفاء بعضها؛ لأنَّ الناقل يُعطي بذلك صورة ناقصة مبتورة لا تُمثل الواقع بتمامه، فمن الناس من ينتقي ما يوافق هواه من الخبر ويحذف ما بقي منه، وهو بذلك لا يُعطيك إلا شطرًا واحدًا من الحقيقة ويدفن ما سواه، أو يقطع الخبر من سياقه والملابسات المحيطة به؛ فيكون الخبر غفلاً من قضايا أخرىٰ لازمة لتكميل القضية ووضوحها.

---

(١) وحي القلم (٢/ ٥٦٥).

التوسع في المعاريض:

بعض الصالحين يحفظه الله ـ عز وجل ـ من الكذب فلا يقع فيه ولا يتجاسر عليه، لكنه قد لا يسلم من المعاريض المحتملة لأكثر من وجه، فيُسرف فيها إسرافًا شديدًا، والمعاريض إذا لم توضع في موضعها الشرعي الصحيح تصبح نظيرة للكذب!

وإذا كان متلقي الخبر فطنًا يقظًا استطاع أن يُميز الخبر المكذوب المختلق، والخبر المنقوص المبتور، كما استطاع بذكائه وبصيرته أن يُميز المعاريض من غيرها، ويتعامل مع كل حدث بما يستحقه من الحكمة والبصيرة.

قال ابن تيمية: «والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه، وبهجة وجهه سيما يُعرف بها، وكذلك الكاذب الفاجر»(١).

ومن مخاطر التوسع في المعاريض: أن الحقيقة إذا ما ظهرت للسامع بخلاف ما فهمه من التعريض ظنَّ أن محدِّثه كاذباً، وهو ليس كذلك.

خطورة الكذب:

خطورة الكذب تكمن في أن مرتكبه قد ينسف بخبر واحد مكذوب أو منقوص أعمالاً جليلة ومكانة سامقة، ويرمي بالكذبة لا يُلقي لها بالاً تبلغ من خطورتها وضررها آفاقًا بعيدة، فقد يسقط الرجل عند الناس من الثُّريا إلى الثرى بكلمة واحدة ملفقة!.

من أجل ذلك كان التحذير من الكذب بالغًا، والعقوبة المترتبة على فعله في غاية الشدة، حتى يكون المسلم أبعد ما يكون عن هذه الآفة المهلكة.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٤٨٩).

جاء في حديث طويل رواه سَمُرة بن جُندب - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ إذا صلىٰ صلاة أقبل علينا بوجهه، فقال: **من رأى منكم الليلة رؤيا؟** قال: فإن رأىٰ أحدٌ قصَّها؛ فيقول: **ما شاء الله**. فسألنا يومًا، فقال: **هل رأى أحد منكم رؤيا؟** قلنا: لا. قال: **لكني رأيت الليلة رجلين أتياني، فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة؛ فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كَلُّوبٌ من حديد** - قال بعض أصحابنا عن موسىٰ - **إنه يدخل ذلك الكلوب في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله. قلت: ما هذا؟! قالا: انطلق...**».

إلىٰ أن قال رسول الله ﷺ: «**قلت: طوَّفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت. قالا: نعم، أما الذي رأيته يُشقُّ شدقُه: فكذَّاب يُحدِّث بالكذبة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيُصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة...**». الحديث(١).

وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالىٰ عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله؛ فقد ضاد الله في أمره، ومن مات وعليه دين؛ فليس بالدينار والدرهم، ولكن بالحسنات والسيئات، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه؛ لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه؛ أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال وليس بخارج**»(٢).

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب رقم (٩٣)، (٣/ ٢٥١) رقم (١٣٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٧٠)، وأبو داود في: كتاب الأقضية، باب فيمن يعين علىٰ خصومة من غير أن يعلم أمرها (٣/ ٣٠٥)، رقم (٣٥٩٧) وإسناده صحيح.

الآفة الثانية : الإشاعة

قال ابن منظور في لسان العرب : «شاع الخبر في الناس يَشيع شَيْعًا وشَيَعانًا ومَشاعًا وشَيْعُوعة ، فهو شَائعٌ : انتشر وافترق وذاع وظهر ، وأشاعه هو وأشاع ذِكْر الشيء : أطاره وأظهره ، وقولهم : هذا خبر شائع ، وقد شاع في الناس ؛ معناه : قد اتصل بكل أحد فاستوىٰ علم الناس به ، و لم يكن علمه عند بعضهم دون بعض ، والشَاعة : الأخبار المنتشرة»(١) .

والشائعات بمعناها الاصطلاحي : «عبارة عن أقوال أو أخبار أو أحاديث يختلقها البعض لأغراض خبيثة ، ويتناقلها الناس بحسن نية ، دون التثبت في صحتها ، ودون التحقق من صدقها»(٢) .

ويُعرفها بعضهم بأنها : «عبارة عن نبأ أو حدث مجرد من أية قيمة يقينية ، ينتقل من شخص لآخر ، قادر علىٰ زعزعة الرأي العام أو تجميده»(٣) .

والإشاعة في أغلب الأحوال ما هي إلا تضخيم للأخبار الصغيرة ، وإظهارها بصورة تختلف عن صورتها الحقيقية ، أو هي تسخير للأخبار المكذوبة وطلاؤها بطلاء براق يلفت إليها الانتباه ، من أجل إشاعة الفُرقة والبغضاء بين العباد ، ثم تسري هذه الأخبار بعد ذلك سيراً وبائيًا بين الصفوف التي تكون ـ في أغلب الأحوال ـ لسوء التربية ، ولغياب الموازين العلمية المعتمدة في القبول والرد ، ولغياب المرشدين الأمناء مرعىً خصيباً لمثل هذه الشائعات .

---

(١) لسان العرب (٨/ ١٩١) مادة : شيع .
(٢) وسائل وأساليب الاتصال للدكتور زيدان عبد الباقي (ص ٤٤٧) .
(٣) علم النفس الاجتماعي لجان ميزونوف (ص ١٠٦) .

والإشاعة هي بداية الاختلاف والتفرق، وسرعان ما ينتهي الحال إلىٰ معركة دامية تُسلُّ فيها الألسن، وتسقط فيها القيم والمثل، وربما يُشهر فيها السلاح. نسأل الله السلامة..!

وحسبك أن تصغي إلىٰ أحاديث الناس في منتدياتهم العامة، بل وفي مجتمعاتهم الخاصة، لتسمع ضجيج الشائعات يطغىٰ علىٰ كل شيء، وسأترك الأمر للقارئ الكريم ليتأمل في حال الناس من حوله، وينظر كم تتغير الأحوال وتتبدل القلوب، بسبب ذلك الهراء الذي يُشيعه بعض الناس بين آونة وأخرىٰ...؟!

وتبدأ الشائعات عادة بكلمة صغيرة ثم يزيدها الناس من هنا وهناك: «حتىٰ تصَّاعد في سرعة إلىٰ عنان السماء، فتحجب عن الرأي ـ أو تكاد ـ آفاق الرؤية الواضحة، وتسد أمام ناظريه السبيل، فلا يرىٰ جبال الحقائق الموضوعية الراسخة، هذه التي تحدد قممها في سماء صافية من المنطق»[1].

والنفوس مجبولة علىٰ التطلع إلىٰ غرائب الأخبار ونوادر الحوادث، فأنت ترىٰ أن الأنظار تنجذب إلىٰ ذلك المرء الذي يُثير الأخبار من هنا وهناك ولو لم تكن ثابتة، ولقد أثبتت الأيام بما لا يدع مجالاً للشك، أن الشهرة والسمعة تكون دائمًا حليف المرء الذي يُحسن عرض الشائعة، ويُزينها بآهات التحسر وإظهار الغيرة علىٰ الدين وأهله!!

وتتولد الإشاعة عادة من خلال إحدى ثلاث حالات:

١ ـ إيجاد خبر لا أساس له من الصحة.

٢ ـ تلفيق خبر لجزء منه نصيب من الصحة.

(١) مقدمة سيكولوجية الإشاعة بقلم المترجم صلاح مخيمر وصاحبه (ص٧).

٣ ـ المبالغة الجسيمة في نقل خبر ينطوي على بعض العناصر الصحيحة[١].

نماذج للشائعات:

التاريخ الإسلامي مليء بالحوادث والأخبار التي ظهرت فيها الآثار السلبية للشائعات، أقتصر على ذكر مثالين فقط:

المثال الأول:

من الحوادث المزعجة التي حصلت في تاريخ هذه الأمة: (قصة الإفك المشهورة) حيث كانت تلك الفرية الآثمة التي أشاعها بعض المنافقين، ورددها بعض المؤمنين بدون تورع أوتثبت، من أثقل ما مرَّ على رسول الله ﷺ وأهل بيته وصحبه الكرام ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ.

وقد أنزل الله ـ عز وجل ـ في ذلك آيات تتلى إلى قيام الساعة، واستعراض تلك الآيات بتدبر وخشوع، يرسم لنا منهجًا محكمًا في السلوك الإسلامي القويم، وفي كيفية التعامل مع الإشاعات التي تنتشر بين الناس.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ

(١) انظر: وسائل وأساليب الاتصال للدكتور زيدان عبد الباقي (ص٤٥٠ ـ ٤٥١).

لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١ – ٢٠] .

قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ في ظلال هذه الآيات كلامًا جميلاً يحسن بنا الوقوف عنده قليلاً . . . حيث قال: «وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ . . . لسانٌ يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا فحص ولا إمعان نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب! .

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ . . بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم . . . إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك وقبل أن تتلقاها العقول .

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ أن تقذفوا عرض رسول الله ﷺ، وأن تدعوا الألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله، وأن تلوثوا بيت الصدِّيق الذي لم يُرم في الجاهلية، وأن تتهموا صحابيًا مجاهدًا في سبيل الله، وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه، ورعاية الله له . . . ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ . . ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ . . . وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تُزلزل له الرواسي وتضج منه الأرض والسماء .

ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد سماعه، وأن تتحرج من مجرد النطق به، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعًا للحديث، وأن تتجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا، وأن يقذف بهذا الإفك بعيدًا عن ذلك الجو الطاهر

الكريم: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾»(١).

المثال الثاني:

نقل ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ عن ابن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «بلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفيًا»(٢).

فهذا الخبر يُبين أن أهل مكة أشاعوا كذبًا إسلام قريش، حتى يضمنوا رجوع المهاجرين المسلمين من الحبشة، وفعلاً استبشر المسلمون بهذا النبأ، ورجع بعضهم ثم علموا بطلان هذه الفرية، فلم يستطيعوا دخول مكة خفية أو محتمين إلا بجوار أحد من المشركين!.

الحذر من ترويج الشائعات:

قد يُصبح المرء الصالح مطية يروِّج بعض الأخبار الشائعة المكذوبة من حيث لا يدري، فهو يتقبل الأخبار أيًا كان مصدرها، دون تفكير متزن ولا وعي بمقتضى هذه الأخبار ومقاصدها، وإنما عن تلقين أو تقليد من غير تأمل أو نظر..!

قال جوزيف دي مستير: «الآراء الكاذبة كالعملة المزيفة، يسكها مجرمون عتاة، ثم يتداولها أناس شرفاء، وتستمر على أيديهم الجريمة، دون أن يعلموا ماذا يفعلون؟!»(٣).

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٠٢ ـ ٢٥٠٣).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٤)، وانظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥٦ ـ ٥٧)، وشرح الزرقاني (١/ ٢٧٠).
(٣) الرأي العام والدعاية لأحمد سويلم (ص١).

وفرق كبير جداً بين خبر يُبنى على الأدلة والبراهين والوقائع الثابتة. . . وآخر يبنى على الدلائل الظنية والأسانيد الواهية، ولذا جاءت توجيهات النبيﷺ في غاية الوضوح والبيان والقوة، للتحذير من إشاعة أخبار لم يتبين صدقها من كذبها، فعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعًا وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(١).

وعند أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يُحدِّث بكل ما سمع**»(٢).

وفي رواية أخرى: «**كفى بالمرء كذبًا أن يُحدِّث بكل ما سمع**»(٣).

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بئس مطية الرجل زعموا**»(٤).

وعن أبي عثمان النهدي قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «بحسب المرء من الكذب أن يحدِّث بكل ما سمع»(٥).

وقال عبد الله بن وهب ـ رحمه الله تعالى ـ: «قال لي مالك: اعلم أنه ليس يسلم رجل حدَّث بكل ما سمع، ولا يكون إمامًا أبدًا وهو يُحدث بكل ما سمع»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال (٥/ ٦٨)، وفي كتاب الأدب (١٠/ ٤٠٥)، ومسلم في الأقضية باب النهي عن كثرة السؤال (٣/ ١٣٤١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب التشديد في الكذب (٤/ ٢٩٨)، وإسناده صيح.

(٣) أخرجه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١٠).

(٤) أخرجه عبد الله بن المبارك في: الزهد والرقائق رقم (٣٧٧)، وأبو داود في الأدب، باب قول الرجل زعموا، رقم (٤٩٧٢). وإسناده صحيح.

(٥، ٦) أخرجهما: مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١١).

وقال عبد الرحمن بن مهدي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «لا يكون الرجل إمامًا يُقتدىٰ به حتىٰ يُمسك عن بعض ما سمع»(١).

وقال الإمام الخطابي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في شرح حديث حذيفة الآنف الذكر: «وإنما يقال: زعموا، في حديث لا سند له ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء يُحكىٰ عن الألسن علىٰ سبيل البلاغ؛ فذمَّ ﷺ من الحديث ما كان هذا سبيله، وأمر بالتثبت فيه والتوثق لما يحكيه من ذلك، فلا يرويه حتىٰ يكون معزيًا إلىٰ ثبت، ومرويًا عن ثقة، وقد قيل: الرَاويةُ أحد الكاذبين»(٢).

وقال الإمام أبو حاتم ابن حبان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «اللسان سبع عقور؛ إن ضبطه صاحبه سلم، وإن خلَّىٰ عنه عقره، وبفمه يُفتضح الكذوب، فالعاقل لا يشتغل بالخوض فيما لا يعلم فيُتهم فيما يعلم؛ لأن رأس الذنوب: الكذب، وهو يبدي الفضائح، ويكتم المحاسن، ولا يجب علىٰ المرء إذا سمع شيئًا يعيبه أن يُحدِّث به؛ لأن من حدَّث عن كل شيء أزرىٰ برأيه وأفسد صدقه»(٣).

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «إن الذي يتصدىٰ لضبط الوقائع من الأقوال والأفعال والرجال، يلزمه التحري في النقل فلا يجزم إلا بما يتحققه، ولا يكتفي بالقول الشائع، ولا سيما إن ترتب علىٰ ذلك مفسدة من الطعن في حق أحد من أهل العلم والصلاح، وإن كان في الواقعة أمرٌ فادح، سواء كان قولاً أو فعلاً أو موقفًا في حق المستور، فينبغي ألاَّ يُبالغ في إفشائه ويكتفي بالإشارة، لئلا يكون وقعت منه فلتة، ولذلك يحتاج المسلم أن يكون عارفًا بمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم، فلا يرفع الوضيع ولا يضع الرفيع»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١١).
(٢) معالم السنن (٤/ ١٣٠)، وانظر: شرح السُنَّة للبغوي (٣/ ٤١٣).
(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٥٣).
(٤) ذيل التبر المسبوك للسخاوي (ص ٤).

وقال العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «من الغلط الفاحش الخطر: قبول قول الناس بعضهم ببعض، ثم يبني عليه السامع حبًا وبغضًا، ومدحًا وذمًا، فكم حصل بهذا الغلط أمور صار عاقبتها الندامة، وكم أشاع الناس عن الناس أمورًا لا حقائق لها بالكلية، أو لها بعض الحقيقة فنميت بالكذب والزور، وخصوصًا من عُرفوا بعدم المبالاة بالنقل، أو عُرف منهم الهوىٰ، فالواجب علىٰ العاقل التثبت والتحرز وعدم التسرع، وبهذا يُعرف دين العبد ورزانته وعقله»(١).

ومن أطرف ما رُوي في سرعة انتشار الكذب وشيوعه بين الناس: ما حدَّث به إمام التابعين الحسن البصري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قال: «خرج عندنا رجل بالبصرة، فقال: لأكذبن كذبة يتحدث بها الوليد، قال الرجل: فما رجعتُ إلىٰ منزلي حتىٰ ظننتُ أنها حق لكثرة ما رأيتُ الناس يتحدثون بها!»(٢).

وحول الآثار السيئة المترتبة علىٰ ظهور الإشاعة، يقول الدكتور أحمد نوفل: «وللإشاعة قدرة علىٰ تفتيت الصف الواحد والرأي الواحد وتوزيعه وبعثرته، فالناس أمامها بين مصدق ومكذب، ومتردد متبلبل، فغدا بها المجتمع الواحد والفئة الواحدة فئات عديدة»(٣).

أفيجوز بعد هذا كله أن يكون الإنسان أذنًا يسمع من كل واحد دون تأنٍّ أو تثبت؟!

أفيجوز أن ينتقص العلماء والعباد والدعاة لقول فلان أو فلان ممن لا يخافون الله عز وجل، أو لا يُعرفون بالتثبت والتحري. . ؟!

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣).
(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس (٢/ ٥٧٩).
(٣) الإشاعة للدكتور أحمد نوفل (ص ١٢٨).

خاصة أن المسلم الفطن لا يحتاج إلىٰ طويل وقت أو كبير جهد ليستطيع الحكم علىٰ بطلان كثير من المنقولات التي تشيع بين المسلمين، وقديمًا كان الناس يقولون: «قبول السعاية شر من السعاية؛ لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة»(١).

ورحم الله أبا الدرداء - رضي الله عنه - الذي قال: «أيما رجل أشاع علىٰ امرئ مسلم كلمة وهو منها بريء ليشينه بها؛ كان حقًا علىٰ الله أن يُعذبه يوم القيامة في النار، حتىٰ يأتي بنفاذ ما قال»(٢).

أسباب انتشار الشائعات:

الأسباب التي تجعل الأخبار المكذوبة تشيع وتحل محل الحقائق في أذهان كثير من الناس بدون تفكير أو تدبر، أسباب عديدة، منها:

أولاً: فصاحة قول المشيع وحسن منطقه، وإجادته عرض الشائعة، وهذا من أسباب رواج إشاعات المنافقين بين الناس، ولهذا قال الله عز وجل في وصف المنافقين: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ** ﴾ [**المنافقون**: ٤]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله - تعالىٰ - عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أخوف ما أخاف على أمتي: كل منافق عليم اللسان**»(٣).

ونظير هذا ماجاء عن أم سلمة رضي الله - تعالىٰ - عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، فلعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم؛ فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها**»(٤).

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس (١/ ٤٠٣)، ويُنسب هذا القول للإمام الشافعي، انظر: حلية الأولياء (٩/ ١٢٣).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه رقم (١٣٠) وإسناده حسن.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٢، ٤٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٠١٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحيل، باب (١٠) (١٢/ ٣٣٩)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر (٤/ ١٧١٣).

وكما قال أحد الشعراء:

في زخرف القول تزيين لباطله والحقُّ قد يعتريه سوء تعبير

ثانيًا: كون المشيع ممن تميل إليه قلوب سامعيه، إما بسبب الصحبة أو التحزب أو التمشيخ، أو غيرها، وهذا يمنع السامع من البحث والنظر فيما يُنقل إليه.

وإحسان الظن لدرجة الغفلة وعدم التثبت سذاجة غير محتملة من شباب الصحوة ودعاتها - على الإطلاق!

ينبني على ذلك أن من الناس من لم يرزقه الله بصيرة ناقدة، بل يُردد ما يقوله الناس كالإمعة الذي لا يدري ما يقول! وقد جاء في وصية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله - تعالى - عنه لكُميل بن زياد النَخعي قوله: «الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلِّم على سبيل النجاة، وهَمَجٌ رِعاعٌ أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق»(١).

وكما قال العلامة الفحل ابن خلدون - رحمه الله تعالى -: «فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل»(٢).

وفي هذا الباب يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «فكم ممن لم يُرد خيراً ولا شراً حتى رأى غيره - لا سيما إن كان نظيره - يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض»(٣).

ثالثًا: موافقة الخبر هوىً في نفس السامع، كأن يرى في هذا الخبر انتصاراً

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٢)، والاتباع لابن أبي العز الحنفي (ص ٨٥).
(٢) مقدمة ابن خلدون (ص٤).
(٣) الحسبة في الإسلام لابن تيمية (ص ٨٥).

لنفسه وفئته، أو تقليلاً من قدر الفئات الأخرىٰ، وهذه ظاهرة نفسية عجيبة لا مجال لإنكارها أو التغاضي عنها، فإنها تفتك بالقلوب، وتمزِّق وحدة الصفوف، وإلىٰ هذا أشار العلامة ابن خلدون رحمه الله ـ تعالىٰ ـ بقوله: «ولما كان الكذب متطرقًا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه: فمنها التشيُّعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت علىٰ حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتىٰ تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيُّع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيُّع غطاءً علىٰ عين بصيرتها من الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله»(١).

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «فإن تجرد النفس يُطلعها علىٰ علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد»(٢).

وترك التجرد مناقض للإنصاف، والعدل واجب.

والإنصاف من الأمور العزيزة التي لا يتصف بها إلا الخُلَّص من الرجال، وكما قال معن بن أوس:

إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدته ... علىٰ طرف الهجران إن كان يعقل

وقول الشاعر الآخر:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة ... بين الأنام وإن كانوا ذوي رحم

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية منهجًا عظيمًا متميزًا في هذا الباب، حيث قال ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «وليس للمعلمين أن يُحزبوا الناس ويفعلوا ما يُلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٥ ـ ٣٦).
(٢) الروح (ص ٢٩).

وإذا وقع بين معلم ومعلم أو تلميذ وتلميذ أو معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة، لم يجز لأحد أن يُعين أحدهما حتىٰ يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوىٰ، بل ينظر في الأمر فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما علىٰ المبطل، سواءاً كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواءاً كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده وطاعة رسوله، واتباع الحق والقيام بالقسط، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ [**النساء**: ١٣٥].

ومن مال مع صاحبه ـ سواءاً كان الحق له أو عليه ـ فقد حكم بحكم الجاهلية، وخرج عن حكم الله ورسوله، والواجب علىٰ جميعهم أن يكونوا يداً واحدة مع المحق علىٰ المبطل، فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله، والمهان عندهم من أهانه الله ورسوله بحسب ما يرضي الله ورسوله لا بحسب الأهواء، فإن من يُطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه»(١).

رابعًا: أن ينطوي موضوع الإشاعة علىٰ شيء من الأهمية بالنسبة للمتحدث والمستمع(٢).

خامسًا: أن تتسم الوقائع الحقيقية بشيء من الغموض(٣).

سادساً: الفراغ؛ حيث يشغل الفارغون البطالون أوقاتهم بالقيل والقال، ويصبح جل همهم البحث والتنقيب في أحوال الناس. وأسوأ ما يكون ذلك عند بعض من ينتسب إلىٰ العلم والدعوة والدعاة، حيث تستهلك الطاقات والأوقات

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ١٥ ـ ١٧).
(٢، ٣) ذكر هذان السببان في كتاب: سيكولوجية الإشاعة لجوردن ألبوت وليوبوستمان. ترجمة د. صلاح مخيمر (ص ٥٥).

في أخبار الناس، ويصبح شغلهم في لحوم الناس وأعراضهم. ومن تدنَّت همته ولم يجد بيئة كريمة تدفعه إلىٰ العطاء والإنجاز؛ ولغ في حضيض التفاهة ولم يعرف إلا بالقيل والقال..!!

من أجل هذا كان لزامًا علىٰ الإنسان العاقل في مثل هذه الأحوال، أن يصبر ويتأنىٰ حتىٰ تتضح الوقائع الحقيقية، ولا يتكلم إلا بعلم وعدل.

إن أمام الصحوة الإسلامية المعاصرة عقبات كبيرة، ومسئوليات جسيمة، وتتطلع الصحوة إلىٰ تحقيق أهداف متنوعة في مجالات شتىٰ، وتمتلك الصحوة الإسلامية ـ بحمد الله وفضله ـ شبابًا يمتلئ حيوية، ويتفجر طاقة، ويعمل بكل إخلاص وصدق وعزيمة، ولديه الاستعداد الكامل في أن يضحي بكل زخرف الدنيا ابتغاء رضوان الله تعالىٰ والدار الآخرة.

وتوظيف هذه الطاقات في مجالات بناءة منتجة، وتسخيرها تسخيراً كاملاً في مصلحة الأمة الإسلامية سوف يُغير الواقع البائس الذي تعيشه الأمة، وستُنجزَ أعمال منقطعة النظير، وستنتفع الأمة منافع عظيمة تظهر آثارها علىٰ شتىٰ القطاعات والمستويات، وذلك بفضل الله سبحانه وتأييده.

وأما استهلاك طاقات الشباب في قضايا حزبية وشخصية، وفي قيل وقال، وإشاعات ملفقة من هنا وهناك، فهو ليس جناية علىٰ الأفراد فحسب، بل علىٰ الأمة الإسلامية بعامة، بل علىٰ البشرية جمعاء..!!

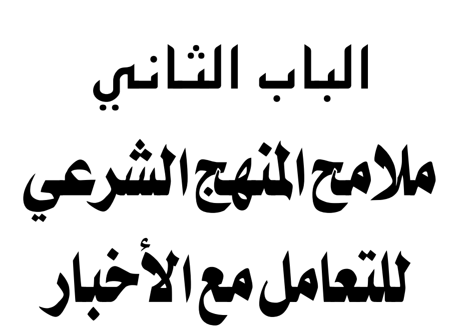
وإن مسؤولية الدعاة والمربين مسؤولية كبيرة، فإما أن يرتفعوا بهموم الشباب وأفكارهم إلىٰ مستوىٰ القضية الخطيرة التي يعيشون لها، وتجني الأمة بعد ذلك خيراً عظيمًا، وإما أن يهبطوا بشباب الأمة الإسلامية إلىٰ الحضيض، وعندها نخسر أنفسنا، ثم نخسر الخيرية التي شرفنا الله عز وجل بها بين الأمم...!

إن شباب الصحوة الإسلامية يحتاج إلىٰ: محاضن تربوية كريمة تدفعه إلىٰ الإنتاج والعطاء، بعيداً عن الشواغل والصوارف الرخيصة، التي ترهقه وتشل من قدرته. وكما قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «ولهذا كان الذهن يحتاج إلىٰ موضع ساكنٍ قارٍ صافٍ عن الأقذار والكدر، خالٍ من الجلبة والزجل، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن، وفتور حركته، وقلة شواغله ومزعجاته»[1].

لذا فلا غرابة أن يكون شباب الأمة ذوي جهد فاتر وهزيل، فقد تشتت معظم جهودهم وهممهم في مثل تلك الأعمال المستهجنة من تتبع عورات وسقطات الآخرين، ثم نفخها وتضخيمها، حتىٰ تبلغ حداً من الكبر تغطي به مدىٰ عيون النافخين من أن يروا الحق والصواب.

ولست أدري كيف يمكن أن نواجه ذلك الزخم الهائل من مكائد الأعداء.. إذا كنا لم نتجاوز بعد هذه العقبات المحزنة، ولم نستطع حتىٰ الآن الانتصار علىٰ أهواء النفوس وحظوظها...!!

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٤).



الباب الثاني

ملامح المنهج الشرعي للتعامل مع الأخبار

أولاً: التثبت في الأخبار

ثانياً: حسن الظن

ثالثاً: سلامة الصدر

أولاً : التثبت في الأخبار

تمتلك هذه الأمة - بفضل من الله - تعالىٰ - ومنِّه - أعظم منهاج في تنقيح الأخبار والمرويات، وقد بنىٰ أئمتنا الكرام - رضي الله تعالىٰ عنهم - هذا المنهاج الكريم علىٰ أسس قويمة وضوابط علمية دقيقة لا لبس فيها ولا غموض، فميزوا بين الثقات والمجروحين من الرواة، والصحيح والضعيف من المرويات ، بكل تثبت وإنصاف، بعيداً عن الأهواء الشخصية، والتعصبات المذهبية.

ولم تظهر آثار هذا المنهاج الكريم في تنقيح السنة النبوية المشرفة فحسب - وإن كان هذا هو أبرز المجالات وأجلها - بل تعداه ليشمل جوانب متعددة من الفكر الإسلامي، كالتاريخ ورجاله، والأدب ورجاله وغيرها.

وفي هذا العصر الذي اندرس فيه منار الإسلام، واختلطت فيه السبل، نحتاج إلىٰ إحياء هذا المنهاج لكي يتضح الطريق، ونعرف الحق من الباطل، ونميز أقدار الرجال ومنازلهم، ورحم الله إمام دار الهجرة مالك بن أنس إذ يقول: «ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف»[1]. ولست أدري ماذا نقول نحن عن زماننا..؟!

الأمر بالتثبت:

جاء الأمر بالتثبت في قبول الأخبار في آية عظيمة من كتاب الله عز وجل، قال الله تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ [**الحجرات**: ٦].

وعلىٰ قراءة أخرىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَثَبَّتُوا** ﴾ الآية.

(١) جامع بيان العلم و فضله لابن عبد البر القرطبي (١/ ١٣٢).

قال الإمام ابن جرير ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «واختلف القراء في قراءة قوله: «فتبينوا» فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة «فتثبتوا» بالثاء، وذكر أنها في مصحف عبد الله منقوطة بالثاء، وقرأ ذلك بعض القراء «فتبينوا» بالباء، بمعنىٰ: أمهلوا حتىٰ تعرفوا صحته، لا تعجلوا بقبوله، وكذلك معنىٰ فتثبتوا، والصواب من القول في ذلك: أنهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنىٰ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب»(١).

إذًا فالتثبت أو التبين هو الأصل الذي يُبنىٰ عليه نقل الخبر، والتأني ثم التحري في صحة النقل دليل الكياسة والفطنة وكمال العقل، فإن: «أصل العقل التثبت»(٢)، وكما قال أحد الشعراء:

قد يُدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزللُ

قال الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «ما اعتمد أحد أمرًا إذا همَّ بشيء ـ مثل التثبت، فإنه متىٰ عمل بواقعه من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم، ولهذا أمر الإنسان بالمشاورة، لأن الإنسان بالتثبت يطول تفكيره فتعرض علىٰ نفسه الأحوال، وكأنه شاور. وقد قيل: خمير الرأي خير من فطيره.

وأشد الناس تفريطًا: مَنْ عَمِل مبادرةً في واقعة من غير تثبت ولا استشارة، خصوصًا فيما يوجبه الغضب، فإنه بنَزَقه طلب الهلاك أو استتبع الندم العظيم، فالله الله! التثبت التثبت! في كل الأمور والنظر في عواقبها، خصوصًا الغضب المثير للخصومة»(٣).

---

(١) جامع البيان للإمام ابن جرير الطبري (٢٦/ ١٢٣).
(٢) الأدب الصغير لابن المقفع (ص١٦٨).
(٣) صيد الخاطر (ص ٣٧٤).

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «والتثبت في سماع الأخبار، وتمحيصها ونقلها وإذاعتها، والبناء عليها، أصل كبير نافع، أمر الله به ورسوله، قال الله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [**الحجرات**: ٦].

فأمر بالتثبت وأخبر بالأضرار المترتبة علىٰ عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم، وأشارإلىٰ الميزان في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ**﴾ وأنه العلم والتحقق في الإصابة وعدمه، فمن تحقق وعلم كيف يسمع، وكيف ينقل، وكيف يعمل، فهو الحازم المصيب، ومن كان غير ذلك فهو الأحمق الطائش الذي مآله الندامة.

وأحوج الناس إلىٰ هذا الأمر: الولاة علىٰ اختلاف مراتبهم وطبقاتهم، وأهل العلم علىٰ تفاوت درجاتهم، وذلك يحتاج إلىٰ اجتهاد وتمرين للنفس، وتوطين لها علىٰ ملازمة التثبت مع الاستعانة بالله، والله الموفق المعين»(١).

وقال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة، فلا يقوم شيء فيها علىٰ الظن أو الوهم أو الشبهة ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾ [**الإسراء**: ٣٦]، وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجًا كاملاً للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثًا جداً، ويُضيف إليه استقامة القلب، ومراقبة الله، ميزة الإسلام علىٰ المناهج العقلية الجافة.

والتثبت من كل خبر، ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة، قبل الحكم عليها،

---

(١) الفتاوىٰ السعدية (ص ٦٦ ـ ٦٧).

هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتىٰ استقام القلب والعقل علىٰ هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم.

الأمانة العلمية التي يُشيد بها الناس، في العصر الحديث، ليست سوىٰ طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يُعلن القرآن تبعتها الكبرىٰ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد، إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب، أمانة يُسأل عنها صاحبها، وتُسأل عنها الجوارح والعقل والقلب جميعًا، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما روىٰ الإنسان رواية، وكلما أصدر حكمًا علىٰ شخص أو أمر أو حادثة.

﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ ، ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين، وما لم تَتَثَبَّتْ من صحته؛ من قول يقال ورواية تروىٰ، ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية».

إلىٰ أن قال - رحمه الله تعالىٰ -: «وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث علىٰ تقرير ذلك المنهج المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه والتثبت في استقرائه، إنما يصل التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته، وفي مشاعره وأحكامه، فلا يقول اللسان كلمة، ولا يروي حادثة، ولا ينقل رواية، ولا يحكم العقل حكمًا، ولا يُبرم الإنسان أمرًا إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحته: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [**الإسراء**: ٩] حقًا وصدقًا»(١).

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٢٧).

إن التسرع في رواية الأخبار أو تلقيها، سوف يؤدي في كثير من الأحيان إلىٰ إلحاق الظلم ببعض الناس، لذا فإن علىٰ الإنسان الواعي مهمة كبيرة جدًا، وهي دراسة مصادر المعلومات بعين فاحصة ناقدة، ومن الضروري حينئذ اعتماد الطريقة الشرعية العلمية، للحصول علىٰ الحقائق، وهذا في ظني كفيل بوأد كثير من الأخبار، وإيقاف تدفقها واستمرارها.

ومن الأمثلة في هذا الباب: قول قيس بن الربيع: «قدم علينا قتادة بن دعامة الكوفة، فأردنا أن نأتيه فقيل لنا: إنَّه يبغض علياً ـ رضي الله عنه ـ فلم نأته. ثم قيل لنا بعد: إنَّه أبعد الناس من هذا، فأخذنا عن رجل عنه»[١].

فانظر كيف جرَّ عدم التثبت إلىٰ تضييع الاستفادة من علو إسناد هذا التابعي الجليل وغزارة حفظه.

الاعتماد على ضبط النقلة وصحة فهمهم:

من القضايا المشكلة الخفية التي قد يغفل عنها بعض الأفاضل: أنهم باديء ذي بدء ينظرون إلىٰ عدالة الناقل وأمانته دون النظر إلىٰ ضبطه وإتقانه في النقل..!

وعندما تكون استجابة الإنسان استجابة عاطفية، فإنه عادة يعجز عن تمييز الحقائق، فقد يكون الناقل قد بلغ الغاية في التقوىٰ والورع، لكنه قليل الضبط، قليل التيقظ، ضعيف الحفظ لما يسمع.

وهذا يذكرني بقول ابن أبي الزناد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «أدركت بالمدينة مائةً كلهم مأمون؛ ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله»[٢].

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧٢).
(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١٥)، وانظر ما بعدها.

وقال الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ. عند هذه الأساطين ـ وأشار إلىٰ المسجد ـ فما أخذت عنهم شيئًا، وإن أحدهم لو ائتمن علىٰ بيت مال لكان أمينًا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن».

وفي رواية ابن وهب عنه: «أدركت بهذه البلدة أقوامًا لو استُسقي بهم المطر لسقوا، قد سمعوا العلم والحديث كثيراً، ما حدثت عن أحد منهم شيئًا، إنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، وهذا الشأن ـ يعني: الحديث والفتيا ـ يحتاج إلىٰ رجل معه تُقىٰ وورع وصيانة، وإتقان وعلم وفهم، فيعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه غداً، فأما رجل بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به، ولا هو حجة، ولا يؤخذ عنه»(١).

قال وكيع بن الجراح رحمه الله تعالىٰ ـ وذكر حديثًا يرويه عن وهب بن إسماعيل ـ: «ذاك رجل صالح . . . وللحديث رجال»(٢).

ومن الناس من يسمع الخبر ثم ينقله علىٰ غير وجهه، ليس من باب الكذب والخيانة، ولكنه لم يستطع أن يفهم الكلام علىٰ وجهه الصحيح، فالله سبحانه وتعالىٰ لم يرزقه حسن الفهم والتيقظ، ولهذا تراه يُقوّل الناس ما لم يقولوا، ويُحمِّل كلامهم ما لا يحتمل . . !

إن هناك تفاوتًا كبيراً بين الناس في الإدراك والقدرة علىٰ تفسير الأحداث، وحينما يفهم السامع من كلام القائل شيئًا، ثم ينقل للناس مفهومه هو ـ لا منطوق القائل ونص كلامه ـ فإنَّ هذا سوف يؤدي إلىٰ لبس شديد عند الناس. وسوء

(١) ترتيب المدارك (١/ ١٣٨ ـ ١٣٩).
(٢) شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي (١/ ٩٤).

الفهم شائع عند كثير من الخلق، وقد يسوء فهم المرء لما يذكر بقصد إرادة السوء، أو بغير قصد عن حسن نية، ولهذا كان من تمام دقة علماء أصول الفقه ـ رضي الله عنهم ـ أنهم يفرقون بين المنطوق والمفهوم، ويُقدمون منطوق القائل على مفهوم كلامه عند التعارض.

ونظير هذا أن السامع يسمع الكلمة أو يقرأها، فيأخذ بعض لوازمها ثم ينقل هذه اللوازم للناس ـ بقصد أو بغير قصد ـ على أنها من أصل الكلام وصلبه! ولهذا أيضًا كان بعض علماء الأصول يقول: لازم القول ليس بلازم.

وعدم مراعاة هذه الجوانب والتنبه لها قد يؤدي إلى التسليم ببعض الأخبار الواهية التي ليس لها أساس من الصحة، ثم تؤدي هذه الأخبار دورها في إثارة ضغائن النفوس....!!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وكثير من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم، وسائر ما به يُعرف مرادهم قد يتعسر على بعض الناس، ويتعذر على بعضهم»(١).

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم الله بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أُمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يُميز به بين الصحيح

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٠٣) تحقيق د. محمد رشاد سالم.

والفاسد، والحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوىٰ الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوىٰ، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوىٰ»(١).

وقال الإمام ابن القيم أيضًا: «والعلم بمراد المتكلم يُعرف تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته، والحوالة علىٰ الأول أوضح لأرباب الألفاظ، وعلىٰ الثاني أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر، وقد يعرض لكل من الفريقين ما يُخل بمعرفة مراد المتكلِّم، فيعرض لأرباب الألفاظ: التقصير بها عن عمومها، وهضمها تارة، وتحميلها فوق ما أريد بها تارة، ويعرض لأرباب المعاني فيها نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ، فهذه أربع آفات هي منشأ غلط الفريقين»(٢).

وقال الإمام السبكي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «فكثيراً ما رأيت من يسمع لفظة فيفهمها علىٰ غير وجهها، فيُغير علىٰ الكتاب والمؤلف ومن عاشره، واستن بسنته، مع أن المؤلف لم يُرد ذلك الوجه الذي وصل إليه هذا الرجل. . . !

فإذا كان الرجل ثقة ومشهوداً له بالإيمان والاستقامة فلا ينبغي أن يحمل كلامه وألفاظ كتاباته علىٰ غير ما تُعود منه ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله»(٣).

وإذا قلبنا صفحات التاريخ فسوف نجد حكايات عديدة، ساء فيها فهم بعض الناس، فحمَّلوا أقوال الآخرين ما لا تحتمل، وفهموا منها ما لم يكن مراداً.

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨٧).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٠).
(٣) قاعدة في الجرح والتعديل (ص ٩٣).

وأذكر من ذلك حادثتين قديمتين، وأخرى حديثة:

الحادثة الأولى:

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «بلغ ابن أبي ذئب أن مالكًا لم يأخذ بحديث: «البيِّعان بالخيار»(١)، فقال: يُستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه!»(٢).

فابن أبي ذئب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فهم مخطئًا أن الإمام مالك ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يرد حديث النبي ﷺ تشهيًا فقال ما قال. . . لكن الإمام مالك ما قال ذلك إلا لوجود معارض راجح عنده، وكما قال الحافظ الذهبي: «فمالكٌ في هذا الحديث، وفي كل حديث له أجر ولابد، فإن أصاب ازداد أجرًا آخر»(٣).

الحادثة الثانية:

حصل خلاف مشهور بين الإمام البخاري، والإمام محمد بن يحيىٰ الذهلي ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ، فقد كان الإمام البخاري يقول: القرآن غير مخلوق، وأفعالنا مخلوقة. ففهم منه الذهلي أنه يقول: لفظي بالقرآن مخلوق! فأثار الناس عليه وآذاه وما زال به حتىٰ أخرجه من بلده!! وبلغ به الحال أن قال: «من ذهب بعد هذا إلىٰ محمد بن إسماعيل البخاري فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان علىٰ مثل مذهبه»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب إذا بيَّن البيعان (٤/ ٣٠٩)، ومسلم في كتاب: البيع، باب الصدق في البيع (٣/ ١١٦٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، وقد ذكر الذهبي بعد ذلك ما يشعر بوجوب التثبت من صحة نسبة هذا القول إلىٰ ابن أبي ذئب، إذ قال: «. . . ولم يسندها أحمد، فلعلها لم تصح».

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٥٦).

(٤) الجرح والتعديل (٧/ ١٩١).

ثم إن أبا حاتم وأبا زرعة ـ وهما من أجلّ أئمة الجرح والتعديل ـ تركا حديث الإمام البخاري، لهذا الأمر!

فانظر كيف أدىٰ سوء الفهم إلىٰ ترك حديث إمام الأئمة، وأمير المؤمنين في الحديث!!

الحادثة الثالثة:

وهي من طريف ما يمكن ذكره في هذا الموضع: أن أحد الإخوة الأفاضل دخل علىٰ أحد أشياخه في مجلسه، فنظر إليه شيخه نظر عتاب وملامة، فلما سأله عن ذلك؟! أخبره شيخه أنه قد سمع أنه يتأول صفة اليد لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بالقوة والقدرة..! فقال صاحبنا: سبحانك ربي هذا بهتان عظيم... وكيف أطيق هذا..؟!

فتهلل وجه الشيخ بعد اطمئنانه، وقال: لعل الناقل لم يتثبت من فهمه!

ثم تذكر صاحبنا أنه تحدث قبل أيام مع بعض أصحابه في تفسير قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ [**الذاريات**: ٤٧].

فقال: بأيد، يعني بقوة، كما نقل ذلك الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالىٰ ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد[1]، ولم يتطرق صاحبنا لصفة اليد لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ولكن فهم منه الناقل فهمًا بعيداً عن المراد فأبعد النجعة..!

وقديمًا كان الحكماء يقولون: «وما آفة الأخبار إلا رواتها»، وما أجمل قول أبي الطيب المتنبي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٤/ ٢٣٧).

وكم من عـائب قـولاً صـحـيـحـاً ... وآفـتـه من الفـهـم السـقـيـم
ولـكـن تـأخـذ الأذهـان مـنـه ... على قـدر القـرائح والعلوم

وقول الشاعر الآخر :

إصـابة مـعنى المرء روح كـلامـه ... فـإن أخطأ المعنى فـذاك مـواتُ
إذا غـاب قلب المرء عن حـفظ لفظه ... فـيـقظتـه للعـالمين سـبـاتُ

ومن طريف ما يذكر في قلة الضبط وضعف الحفظ : قول أبي عُبيدة لكيسان ـ مستمليه ـ : «كيسان يسمع غير ما أقول ، ويقول غير ما يسمع ، ويكتب غير ما يقول ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويحفظ غير ما يقرأ»[(١)] .

وليس هذا بعيداً عن بعض النقلة في هذا العصر . . !!

الاعتماد على القرائن في قبول الأخبار وردها :

مما تقدم يتبين لنا : أن الخبر إذا نقل عن أحد من العلماء أو الدعاة ، ولم يتأكد لنا صحة النقل ، أو صحة فهم الدلالة ، فينبغي أن يُعرض ذلك الخبر على أقواله وأفعاله السابقة واللاحقة ، ويُقاس بطريقته وأحواله ، فإن خالف ذلك الخبرُ المعروفَ من سيرته وقوله ، كانت هذه قرينة مهمة في رد الخبر ، أو حمله على المعروف من حاله .

وأعتقد أن هذه الطريقة ـ أعني : الاعتماد على القرائن ـ من الوسائل المفيدة جداً في تمييز الأخبار وتنقيحها ، قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : «والكلمة الواحدة يقولها اثنان ، يُريد بها أحدهما : أعظم الباطل ، ويُريد بها الآخر محض الحق ، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه ، وما يدعو إليه ويُناظر عنه»[(٢)] .

---

(١) أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني ص ٩٢ .

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٥٢١) .

وتقدم قريبًا قول الإمام السبكي ـ رحمه الله تعالى ـ: «فإذا كان الرجل ثقة مشهودًا له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يُحمل كلامه وألفاظ كتاباته على غير ما تُعوِّد منه ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظنِّ الواجب به وبأمثاله»(١).

ومن جميل ما يحسن ذكره في هذا المقام تطبيقًا لهذه القاعدة المثالان الآتيان:

المثال الأول:

نقل عن سهل التستري أنه لما دخل الزنج إلى البصرة، قيل له في ذلك، فقال: «هاه، إن ببلدكم هذا من لوسألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها، ولو سألوه أن لا يُقيم القيامة لما أقامها، لكنهم يعلمون مواضع رضاه فلا يسألونه إلا ما يُحب!» ولما علم من حال سهل أنه ليس من أهل الغلو والإسراف، قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «وهذه الحكاية إما كذب على سهل ـ وهذا الذي نختار أن يكون حقًا ـ، أو تكون غلطًا منه فلا حول ولا قوة إلا بالله»(٢).

المثال الثاني:

نقل عن الجنيد ـ رحمه الله ـ أنه قال: «انتهى عقل العقلاء إلى الحَيْرة» قال ابن تيمية: «فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد، وفيه نظر هل قاله؟! ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود، فإن كان قد قال هذا فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه، لم يُرد بذلك أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدى وعلم؛ فإن الجنيد أجلّ من أن يريد هذا، وهذا الكلام مردود على من قاله».

ثم قال ابن تيمية كلامًا متينًا محكمًا، في آخره: «. . . كل أحد يؤخذ من

(١) قاعدة في الجرح والتعديل (ص ٩٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٦٦).

قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وما ثَمَّ معصوم من الخطأ غير الرسول، لكن الشيوخ الذين عُرف صحة طريقتهم عُلم أنهم لا يقصدون ما يُعلم فساده بالضرورة من العقل والدين»(١).

الخبر التحليلي:

ومما يُؤثِّر على صياغة الخبر ونقله ويوجب التحري والتثبت: أن الناقل للخبر يقرن بين ذكره للخبر وبين رأيه هو وتحليله . . . حتى إن السامع يظن أن كل ما ينقل هو الخبر، وتختلط بين يديه الأوراق ولا يستطيع بعد ذلك أن يُميز بين الخبر وبين تصورات الناقل وتحليلاته الشخصية، وهناك فارق جوهري بين ذكر الخبر مجردًا، وبين الخبر التحليلي، ولا شك بأن الالتزام بالأسلوب العلمي في عرض الأخبار شرط أساس في صحة النقل وإبراء الذمة.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضًا: أن رؤية الإنسان الفكرية وانطباعاته النفسية لها تأثير كبير على صياغة الخبر ونقله، فقد يثير الناقل حول الخبر ضبابًا كثيفًا، يحجب رؤية السامع ويُعمي بصيرته، ومعلوم أن الخبر الواحد يمكن أن يروى على سبعين وجهًا، ويستطيع الناقل أن يتخير أحسن الألفاظ وأعفها، كما أنه يستطيع اختيار أقسى الألفاظ وأفحشها . . . !!

ومن روائع الإمام ابن القيم قوله - رحمه الله تعالى -: «وكل أهل نحلة ومقالة يُكسبون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل، ولا تغتر باللفظ، كما قيل في هذا المعنى:

تقول: هذا جنيّ النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت: ذا قيء الزنابير

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٩١- ٣٩٣).

مدحًا وذمًا وما جاوزت وصفهما   والحــق قد يعــتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل، فجرِّده من لباس العبارة، وجرِّد قلبك عن النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه ناظرًا بعين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه فيهم ـ نظرًا تامًا بكل قلبه، ثم ينظر في مقالة خصومه وممن يسيء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق»(١).

وقد يكون الخبر المنقول صحيحًا، ولكن الناقل يُخبر به بصيغة التهكم والاستهزاء، والتهكم سلاحٌ خفي لاذع يُسقط من قيمة الآخرين، ويُقلل من احترامهم. . «فطعن اللسان أنفذ من طعن السنان»(٢).

فاللغة التي يُصاغ فيها الخبر تؤثر تأثيرًا بالغًا على المتلقي، سلبًا أو إيجابًا، وجزمًا أن الخبر إذا عرض بأدب وورع: تقبله المخالف واطمأنت إليه النفوس، ولكن إذا عرض في سفهٍ وتشفٍّ: أثار المخالف وجعله يُصر على عناده وباطله وتكذيبه للخبر!!

وأشار الجاحظ إشارة عجيبة إلى هذا الشأن، حيث قال: «اللفظ الهجين الرديء، والمستكره الغبي، أعلق باللسان، وآلف للسمع، وأشد التحامًا بالقلب، من اللفظ الشريف، والمعنى الرفيع الكريم»(٣).

وأكثر دقة منه قول الإمام أبي محمد ابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: «من

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤١).
(٢) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب لجمال الدين القاسمي (ص٧).
(٣) البيان والتبيين (١/ ٤٨).

العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة، والرذائل مستقبحة ومستحبة»(١).

وهذا عند من لم ينوِّر الله فؤاده بنور الإيمان.. وأما من اطمأنت نفسه بذكر الله، وخالطت بشاشته سويداء قلبه، كان للكلم الطيب أقرب، وعن اللغو الباطل أبعد، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣].

* * *

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص ٦٦).

ثانيا : حسن الظن

من الناس من يطلق لخياله العنان، ويصوغ شتى التصورات التي تنسب إلى الناس التهم، وتوقعهم في البلاء . . . وسوء الظن يجعل الإنسان يتجه اتجاهًا مغايرًا لما أراده الناس، ويقوم بتفسير الكلمات والوقائع والأخبار بناءً على خلفيات نفسية مبيَّتة، فيُفرِّغ كل كلمة من مضمونها ويملؤها بمعان أخرى عديدة ليست من مدلولها، ثم يمارس هذا الإنسان - دون وعي - نوعًا من التحليل لما يراه ويسمعه، ثم يضخم إحساسه تضخيمًا مسرفًا بدون أي تحفظ .

قال الله تعالى محذرًا من هذا الخُلُق : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [**الحجرات** : ١٢] .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(١) .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسير آية الحجرات : «قال علماؤنا : فالظن هنا وفي الآية : التهمة، ومحل التحذير والنهي : إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يُتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله : ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا** ﴾ وذلك

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٧، ٣١٢، ٣٤٢ . . . وغيرها)، والبخاري في كتاب الأدب، باب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ (١٠/ ٤٨٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن (٤/ ١٩٨٥) .

أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداءاً ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة، فنهىٰ النبي ﷺ عن ذلك».

ثم قال الإمام القرطبي مبينًا طريقة تمييز الظنون: «والذي يُميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تُعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث»(١).

وبهذا يتبين أن الظن السيء هو: ترجيح ما يخطر في النفس من احتمال السوء، وهو يبدأ بخاطرة تنقدح في ذهن الشخص، ثم لا يزال الشيطان ينفخ فيها حتىٰ تسيطر عليه، ثم ينزلها منزلة الحقيقة التي لا مراء فيها ولا جدال..!!

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو: الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلىٰ الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها»(٢).

ويبدو أن الخلفية النفسية للظن السيء تنبئ بقلب عامر بألوان عديدة من ألوان الفساد: كالأثرة وحب الذات، والحسد، والرغبة في الوقيعة بأعراض المسلمين..

بينما ترىٰ المرء الذي يحرص علىٰ إحسان الظن بإخوانه المسلمين ويتلمس لهم المخارج، يمتلئ قلبه حبًا للآخرين وإشفاقًا عليهم ورحمة بهم. وإن سلامة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣١-٣٣٢).
(٢) الفوائد (ص ٣٠٦).

القلب وخلوه من الظنون الفاسدة من القضايا الكلية العظيمة التي تملأ قلب المرء المؤمن راحة وطمأنينة وأنساً.

قال أبو الطيب المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدَّق ما يعتاده من توهم

وعادىٰ محبيه بفعل عداته وأصبح في ليل من الجهل مظلم

والظن - في أغلب الأحوال - عند كثير من الناس، ما هو إلا تخرصات وأوهام، ورجم بالغيب، غير مبني علىٰ دلائل صريحة، وبراهين راجحة، فهو كما قال أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالىٰ -: «عقد القلب وحكمه علىٰ غيره بالسوء، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشك معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعَيَان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهد بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق».

ثم قال أبو حامد - رحمه الله تعالىٰ -: «أمارة عقد سوء الظن: أن يتغير القلب معه عما كان، فينفر عنه نفوراً ما، ويستثقله عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه»[(١)].

التماس العذر لأهله:

ينبغي أن يعلم أن الأصل في المرء المسلم براءة الذمة وحسن الظن؛ وخاصة

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٦٤).

العلماء وطلاب العلم والدعاة، وهذه القاعدة شرط جوهري لنزاهة الفكر ومنهجية البحث، وليس من الرزانة ولا من العقل. . بل ولا من الشرع أن يكون الأصل هو: اتهام المسلمين وإساءة الظن بهم. والمواقف وردود الأفعال لا ينبغي بل لا يجوز أن تبنىٰ علىٰ مجرد التخرصات والظنون المرجوحة. . وهذا من مقتضيات قول الله عز وجل: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾ [**الإسراء**: ٣٦].

ولهذا كان الواجب علىٰ العاقل اللبيب إذا سمع خبرًا لم تطمئن له نفسه عن أحد من الدعاة أو العلماء أو الصالحين أن يظن بهم خيرًا، ويحمل ما سمعه وما قرأه علىٰ أحسن المحامل الممكنة، ولا يترك للشيطان فرصة العبث بينه وبين إخوانه المسلمين، خاصة أن كثيراً من الأعداء اجتهد في تشويه أحوالهم، وتلفيق التهم عنهم! قال الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بعد حادثة الإفك: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾ [**النور**: ١٢].

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً»(١).

وروىٰ ابن حزم بإسناده عن سعيد بن المسيب أنه قال: «وضع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ للناس ثماني عشرة كلمة من الحكمة، منها: ضَعْ أمر أخيك علىٰ أحسنه حتىٰ يأتيك علىٰ ما يغلبك عليه. ولا تظن بكلمة خرجت من في امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً»(٢).

وقال محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «إذا بلغك عن أخيك شيء

(١) تفسير الحافظ ابن كثير (٤/ ٢١٢) سورة الحجرات.
(٢) آخر طوق الحمامة، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي (١/ ٣٠٩) تحقيق د. إحسان عباس.
«في» أي: فم.

فالتمس له عذراً؛ فإن لم تجد، فقل: لعل له عذراً»[١].

وقال أبو قلابة عبد الله بن زيد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعل لأخي عذراً لا أعلمه»[٢].

وقال الإمام أبوحنيفة ـ رحمه الله تعالىٰ ـ علىٰ لسان العالم ينصح المتعلم: «أصلحك الله لا تكونن منك العجلة، وتثبت في الفتيا، فإن أنكرت شيئًا مما أذكره لك فسل عن تفسيره إن كنت مناصحًا، فرب كلمة يسمعها الإنسان فيكرهها، فإذا أخبر بتفسيرها رضي بها، ولا تكونن كالذي يسمع الكلمة فيكرهها ثم يغتنمها، إرادة الشين فيذيعها في الناس ولا يقول: عسىٰ أن يكون لهذه الكلمة تفسير ووجه هو عدل ولا أعلمه، أفلا أسأل صاحبي عن تفسيرها؟ أو لعلها كلمة جرت علىٰ لسانه ولم يتعمد بها فينبغي لي أن أتثبت ولا أفضح صاحبي ولا أشينه، حتىٰ أعلم ما وجه كلامه»[٣].

وقال الإمام أبوحاتم ابن حبان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «السبب المؤدي إلىٰ الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء: إما وجود الزلة من أخيه ـ ولا محالة يزل ـ فلا يغضي عنها، ولا يطلب لها ضدها، وإبلاغ واش يقدح فيه ومشي عاذلٍ بثلب له؛ فيقبله ولا يطلب لتكذيبه سببًا ولا لأخيه عذراً، وورود مللٍ يدخل علىٰ أحدهما؛ فإن الملالة تورث القطع، ولا يكون لملول صديق»[٤].

وقال الإمام ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «والكلمة الواحدة يقولها

---

(١) التوبيخ والتنبيه لأبي الشيخ الأصبهاني رقم (٩٧) بإسناد حسن.
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٢٨٥).
(٣) العالم والمتعلم لأبي حنيفة ـ إن صحت النسبة إليه! ـ (ص ٥٥).
(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٢٠٦).

اثنان، يُريد بها أحدهما: أعظم الباطل، ويريد بها الآخر، محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه ويناظر عنه»(١).

وقال الإمام السبكي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: « فإذا كان الرجل ثقة مشهودًا له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يحمل كلامه وألفاظ كتاباته علىٰ غير ما تُعود منه ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله»(٢).

وللعلامة عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ كلام متين، حيث قال: «يُعجبني ما وقع لبعض أهل العلم، وهو أنه كتب له إنسان من أهل العلم والدين، ينتقده انتقادًا حاراً في بعض المسائل، ويزعم أنه مخطئ فيها، حتىٰ إنه قدح في قصده ونيته، وادعىٰ أنه يدين الله ببغضه، بناءاً علىٰ توهم من خطئه، فأجاب المكتوب له: يا أخي، إنك إذا تركت ما يجب عليك من المودة الدينية، وسلكت ما يحرم عليك من اتهام أخيك بالقصد السيء ـ علىٰ فرض أنه أخطأ ـ وتجنبت الدعوة إلىٰ الله بالحكمة في مثل هذه الأمور، فإني أخبرك ـ قبل الشروع في جوابي لك عما انتقدتني عليه ـ: بأني لا أترك ما يجب عليّ من الإقامة علىٰ مودتك والاستمرار علىٰ محبتك المبنية علىٰ ما أعرفه من دينك، انتصاراً لنفسي، بل أزيد علىٰ ذلك بإقامة العذر لك في قدحك في أخيك، بأن الدافع لك علىٰ ذلك قصد حسن، لكن لم يصحبه علم يُصححه، ولا معرفة تبين مرتبته، ولا ورع صحيح يوقف العبد عند حده الذي أوجبه الشارع عليه، فلحسن قصدك عفوت لك عما كان منك لي من الاتهام بالقصد السيء، فهب أن الصواب معك يقينًا، فهل خطأ الإنسان عنوان علىٰ سوء قصده؟!

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥٢١).
(٢) قاعدة في الجرح والتعديل (ص ٩٣).

فلو كان الأمر كذلك لوجب رمي جميع علماء الأمة بالقصود السيئة، فهل سلم أحد من الخطأ؟!

وهل هذا الذي تجرأت عليه، إلا مخالف لما أجمع عليه المسلمون، من أنه لا يحل رمي المسلم بالقصد السيء إذا أخطأ، والله تعالىٰ قد عفا عن خطأ المؤمنين في الأقوال والأفعال وجميع الأحوال.

ثم نقول: هب أنه جاز للإنسان القدح في إرادة من دلت القرائن والعلامات علىٰ قصده السيء، أفيحل القدح فيمن عندك من الأدلة الكثيرة علىٰ حسن قصده، وبُعده عن إرادة السوء، ما لا يُسوِّغ لك أن تتوهم فيه شيئًا مما رميته به، وإن الله أمر المؤمنين أن يظنوا بإخوانهم خيراً، إذا قيل فيهم خلاف ما يقتضيه الإيمان، فقال تعالىٰ: ﴿ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً** ﴾.

[**النور**: ١٢]

واعلم أن هذه المقدمة ليس الغرض منها مقابلتك بما قلت، فإني كما أشرت لك: قد عفوت عن حقي إن كان لي حق، ولكن الغرض النصيحة، وبيان موقع هذا الاتهام من العقل والدين والمروءة والإنسانية»[١].

وقال الدكتور مصطفىٰ السباعي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «والجماهير دائمًا أسرع إلىٰ إساءة الظن من إحسانه . . . فلا تُصدق كل ما يُقال ولو سمعته من ألف فم، حتىٰ تسمعه ممن شاهده بعينه، ولا تصدق من شاهد الأمر بعينه، حتىٰ تتأكد من تثبته فيما يشاهد، ولا تصدق من تثبت فيما يشاهد حتىٰ تتأكد من براءته وخلوه عن الغرض والهوىٰ، ولذلك نهانا الله عن الظن، واعتبره إثمًا لا يُغني من الحق شيئًا»[٢].

---

(١) الفتاوىٰ السعدية (ص ٧١ ـ ٧٣).
(٢) أخلاقنا الاجتماعية (ص ٦٠).

وما أجمل قول منصور النمري رحمه الله تعالىٰ:

لعــل له عــذرًا وأنــت تلوم وكم من ملوم وهو غير مليم

وإحسـان الظـن بالمسلمين ـ خـاصـة العلمـاء منهم والدعـاة ـ من القـضـايا الواضحة الجلية التي لا شك فيها ولا غموض، ولا يخالف في ذلك إلا جاهل أو مكابر، أو صاحب هوىٰ... وأعتقد أن: «من رقىٰ إلىٰ هذه الربوة بعين لا قذىٰ بها، أبصر الحق عيانًا بلا مرية، وأخبر عنه بلا فرية، ومتىٰ صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كله كالنهار إذا أمتع، واستنار كالقمر إذا طلع، ولم يبق حينئذ ريب في عرفان الحق وحصول الصواب، إلا ما يلتاث بالهوىٰ، ويَسْمُج بالتعصب، ويجلب اللجاج، ويخرج إلىٰ المحك، فهناك يطيح المعنىٰ، ويضل المراد»[1].

إذًا فالمشكلة ليست من الناحية النظرية، وإنما تكمن المشكلة في الجانب العملي. والممارسة التطبيقية هي التي تُظهر المعادن الكريمة، والنفوس العبقة الطهور.. وبعضنا قد يُحسن التنظير ولكن إذا جاءت الممارسة أخفق إخفاقًا ذريعًا، وتلاشت تلك المثل والمبادئ...!!

وختامًا أقول: فكما أنه لا يجوز إساءة الظن بالمسلمين... فكذلك لا يجوز تسويغ أخطائهم وكتمانها، واعتساف المعاذير لهم، وجعل سيئاتهم حسنات... لأن ذلك يؤدي إلىٰ تراكم الأخطاء واجترارها في الأجيال القادمة، ومن ثم يتآكل البناء ويتصدع!

والمطلوب ـ بلا شك ـ أن يقال للمحسن: أحسنت... وللمسيء أسأت.. بأدب ولين، وقصد حسن، ومنهجية علمية صادقة، وعندها تكون

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (١/ ٧٦).

كلماتنا بانية هادية للحق، تلامس القلوب برفق فتنتفع بها، وتطمئن لها، والله يتولىٰ السرائر ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

* * *

ثالثا : سلامة الصدر

عند زحمة العمل وكثرة الاختلاط بالناس . . . يحدث التنافس في مجالات العمل بين الدعاة، وقد يحصل بين حين وآخر بعض الاختلاف في وجهات النظر وطريقة سير العمل، وأحيانًا يؤدي الخلاف في الآراء والتصورات إلىٰ اختلاف القلوب وجفوتها، وقد يصل الأمر عند بعض الناس حدًا يجعله يُضمر في قلبه شعوراً غير حسن تجاه إخوانه، وهذه ـ بلا شك ـ مشكلة من كبرىٰ المشكلات في العمل الإسلامي .

وسلامة صدر المسلم من الحقد علىٰ إخوانه المسلمين من الصفات الكريمة النادرة التي تعمر قلب المؤمن بالأمن والطمأنينة والراحة، وتدفعه إلىٰ العمل والإنتاج بعيداً عن الأهواء والأحقاد التي تكبل المرء بآسار ثقيلة لا يتخلص منها إلا من هدىٰ الله ورحم .

عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ قال : «كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال : **يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة**، فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه، قد علَّق نعليه بيده الشمال . فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولىٰ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل علىٰ مثل حاله الأول، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ـ أي : تبع الرجل ـ فقال : إني لاحيتُ أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتىٰ تمضي فعلت، قال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله يُحدِّث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره

يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث الليالي وكدت أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله! لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك فأنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل. . . فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟! قال: هو ما رأيت. فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق. . . !»(١).

إنها حال عجيبة حقًا، يتأملها الإنسان ولا يكاد يحيط بعمقها وجلالها، ولكن! حين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق، وتطمئن نفسه، وتسكن جوارحه، ويصبح قلبه سمحًا عامراً بالحب والإشفاق لإخوانه المسلمين، فإنه يستعلي على حظوظ النفس وأهوائها ولا يحتمل قلبه المرهف الآمن، المطمئن بذكر الله، النابض بحلاوة الإيمان أن يحمل بين جنباته حقداً على أحد من المسلمين. . . !!

والمؤمن الصادق كلما اقترب قلبه من ربه ـ سبحانه وتعالى ـ، حسنت سريرته وسلمت طويته، وكان ظاهره خيراً، وباطنه خيراً من ظاهره، ومتى بريء قلب الإنسان من الغل والحقد عاش بأمان وسلام، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم خفايا النفوس ومعادنها. . !

قال زيد بن أسلم: دُخل على أبي دجانة ـ رضي الله عنه ـ وهو مريض، وكان

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٦٦) وإسناده صحيح.

وجهه يتهلل فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: «ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرىٰ: فكان قلبي للمسلمين سليمًا»(١).

وعن سفيان بن دينار قال: قلتُ لأبي بشير - وكان من أصحاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: «كانوا يعملون يسيراً، ويؤجرون كثيراً»، وقال: قلت: ولم ذاك؟ قال: «لسلامة صدورهم»(٢).

وقال إياس بن معاوية بن قرة - رحمه الله تعالىٰ -: «كان أفضلهم عندهم - يعني عند الصحابة رضي الله عنهم - أسلمهم صدوراً، وأقلهم غيبة»(٣).

وقال الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالىٰ -: «لم يُدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس، وسلامة الصدر، والنصح للأمة»(٤).

دفع السيئة بالحسنة:

ألا ما أسعد الإنسان حينما يَطهُر قلبه، وتصفو نفسه من أدران الغل والحقد والحسد. . . !

ألا ما أسعد الإنسان حينما يرجو الخير لأمته وإخوانه المسلمين، ويرفع أكف الضراعة لله - سبحانه وتعالىٰ - بقلب خاشع مخبت منيب، يسأل الله - عز وجل - أن يغفر لإخوانه المؤمنين، ويُبصرهم بصراطه المستقيم، حتىٰ حينما يُثقل الإنسان

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٤٣).
(٢) أخرجه هنَّاد ابن السري في الزهد (٢/ ٦٠٠).
(٣) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (ص ٦٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١٢٥).
(٤) غربة الإسلام لابن رجب الحنبلي (ص ٨٧).

بمكر بعض إخوانه وكيدهم وجهلهم؛ فإنه يصبر ويكظم، ويدفع السيئة بالحسنة، ويسأل الله ـ عز وجل ـ لهم الهداية ويتذكر إيذاء الناس لنبي من الأنبياء السابقين ـ عليهم وعلىٰ نبينا صلوات الله وسلامه ـ حيث ضربوه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

ثم يقول هذا الذي أسيء إليه من أخيه ـ متمثلاً قول المقنع الكندي ـ:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جداً
فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيّي هويت لهم رشدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس كريم القوم من يحمل الحقدا

ويتمثل أيضًا قول الشاعر الآخر:

إذا أَدْمت قوارصكم فؤادي ... صبرتُ على أذاكم وانطويتُ
وجئتُ إليكم طلق المُحيَّا ... كأني ما سمعت ولا رأيتُ

ومن المواقف الجميلة الطهور التي تدل على سلامة الصدر، وزكاء النفس وصفائها:

موقف أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ من مسطح بن أثاثة ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ فبعد حادثة الإفك التي أثارها المنافقون، ورددها بعض أصحاب

---

(١) أخرجه أحمد (٤٢٧، ٤٣٢، ٤٥٣، ٤٥٦، ٣٨٠)، والبخاري في كتاب الأنبياء، باب رقم (٥٤) (٦/ ٥١٤)، وفي كتاب المرتدين، باب رقم (٥) (١٢/ ٢٨٢)، ومسلم في كتاب الجهاد، باب غزوة أحد رقم (١٧٩٢)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٥).

النبي ﷺ - ومن بينهم مسطح بن أثاثة - اهتز بيت النبي ﷺ وبيت صاحبه الصديق - رضي الله عنه - بل اهتزت لها أرجاء المدينة النبوية كلها، وكان ذلك من أثقل ما مرَّ على النبي ﷺ وزوجه عائشة - رضي الله تعالى عنها -.

فلما نزلت براءة الصديقة، قال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره -: «والله لا أنفق على مسطح أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال!» فأنزل الله: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [**النور**: ٢٢].

قال أبو بكر الصديق: «بلى! والله إني أحب أن يغفر الله لي» فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: «والله لا أنزعها أبداً»(١).

ومن الأمثلة التي يحسن ذكرها في هذا المجال أيضًا: ما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - حيث قال: «وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك! فيقول: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [**النساء**: ٧٦]، ويتلو أيضًا: ﴿**وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾ [**فاطر**: ٤٣]، فقال له عبد المجيد بن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي ﷺ: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**»(٢) وقال ﷺ: «**من دعا على ظالمه فقد انتصر**»(٣)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿**لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا**﴾ (٨/ ٤٥٥) رقم (٤٧٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها» (١٣/ ٥)، ومسلم في الإمارة، باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة (٣/ ١٤٧٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ (٥/ ٥٥٤)، وضعفه محقق سير أعلام النبلاء.

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٦١).

ومن الأمثلة الجميلة أيضًا: موقف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من مخالفيه، فبالرغم من إيذائهم له وتعدِّيهم عليه بالباطل، إلا أنه لم يقابل ذلك إلا بالإحسان، فها هو ذا يقول: «أنا والله! من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها، وإقامة كل خير، وابن مخلوف لو عمل مهما عمل، والله! ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أُعين عليه عدوَّه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هذه نيتي وعزمي، مع علمي بجميع الأمور فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين»(١).

ويقول ابن تيمية في موضع آخر: «هذا وأنا في سعة صدر لمن يُخالفني، فإنه وإن تعدّىٰ حدود الله فيَّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدىٰ حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمًا بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدىً للناس حاكمًا فيما اختلفوا فيه»(٢).

وقال أيضًا: «فلا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذبه عليَّ، أو ظلمه وعدوانه، فإنيّ قد أحللتُ كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حلٍّ من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله، فإن تابوا تاب الله عليهم، وإلا فحكم الله نافذٌ فيهم، فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله لكنتُ أشكر كل من كان سببًا في هذه القضية؛ لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه وأياديه ـ الذي لا يقضي للمؤمن قضاءاً إلا كان خيرًا له»(٣).

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٢٧١) مع أن ابن مخلوف هذا قال عن ابن تيمية: «هذا عدوي»، ولما بلغه أن الناس يترددون إلىٰ ابن تيمية في سجنه قال: «يجب التضييق عليه إن لم يُقتل، وإلا فقد ثبت كفره!» انظر: البدر الطالع (١/ ٧٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٥٥ـ ٥٦).

حتىٰ في حال مناظرته مع غلاة المبتدعة، فإنه يقول: «وما أحببتُ البغي والعدوان، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يُمكن من الإحسان»(١).

وما أجمل أن تتحول الأقوال والمثل إلىٰ ممارسة عملية صادقة، فهذه هي الخصلة العزيزة التي غابت عن كثير من الناس. . . !!

وسلامة القلب: «مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته، وهو أن لا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذىٰ وطلب الوصول إلىٰ درك ثأره، وشفاء نفسه، بل يفرغ قلبه من ذلك ويرىٰ أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له، وألذ وأطيب، وأعون علىٰ مصالحه، فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه، فيكون بذلك مغبوناً، والرشيد لا يرضىٰ بذلك ويرىٰ أنه من تصرفات السفيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام»(٢).

ومن حكمة الله ـ تعالىٰ ـ بقاء ذكر الأئمة الذين نحسبهم جرّدوا قلوبهم من حظوظ النفس كالإمامين البخاري وابن تيمية وغيرهما، وأما غيرهم ممن وقع في حمأ الانتقام والانتصار للنفس فقد قلّ ذكرهم، ولم تظهر مكانتهم في التاريخ إلا ضعيفة.

أعراض العلماء والدعاة:

هذه السماحة، وهذه الرحمة، يُقابلها عند بعض الناس صورة قاتمة عبوس، زاخرة بألوان شتىٰ من الطباع المذمومة! وإن من الصفات غير المحمودة علىٰ الإطلاق: المحاولة الجادة اللاهثة لتتبع سقطات الناس وعثراتهم، ثم نقلها إلىٰ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٥٤).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٠).

الآخرين وما شاعت هذه الصفة في أمة من الأمم إلا تخلخلت أركانها، ودب فيها الانحلال، وعم الفساد. . . !!

إن أعراض العلماء والدعاة أصبحت عند بعض الناس كلأ مباحًا يقع فيه متىٰ شاء وكيف شاء، ولست أدري أي خير يبقىٰ في الأمة بعد علمائها ودعاتها. . . ؟!

ورحم الله الإمام عبد الله بن المبارك إذ يقول: «من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته»(١).

وقد قالها مدوية بكل قوة الحسن بن سفيان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وهو من أئمة المحدثين ـ لأحد تلاميذه بعد أن أثقل عليه: «اتق الله في المشايخ، فربما استُجيبت فيك دعوة!»(٢).

وقال الإمام السخاوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «إنما الناس بشيوخهم؛ فإذا ذهب الشيوخ فمع من العيش؟!»(٣).

ويا ليت أولئك الذين يعبثون بنقل الأخبار حول العلماء والدعاة يقفون عند هذه الأقوال ويتفكرون فيها(٤) ولكن تتبع عورات المسلمين والتنقيب عن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٥٩)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٧٠٥).

(٣) فتح المغيث (٢/ ٣٦٢).

(٤) لقد كان منهج السلف في تقدير العلماء منهجًا عجيبًا، اقرأ مثلاً قول الإمام الثوري: «إذا رأيت الشاب يتكلم عند المشايخ، وإن كان قد بلغ من العلم مبلغًا، فآيس من خيره، فإنه قليل الحياء»، أخرجه البيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (ص ٣٨٨).
وصح عن الربيع بن سليمان أنه قال: «والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبة له» أخرجه البيهقي في المدخل (ص ٣٩٠). =

أخطائهم وهفواتهم داءٌ يسيطر علىٰ بعض النفوس الكليلة الضعيفة، فمن الناس من يفرح بزلة يسمعها من فلان أو فلان من المسلمين، وكأنه قد وقع علىٰ صيد ثمين، خاصة إذا كان ذلك المرء يميل إلىٰ فئة غير فئته، ثم تراه بعد ذلك يُشيع هذه الزلة، وينشرها بين الملأ، من باب التشفي والانتقام والانتصار للذات، وهو يُسوِّغ لنفسه هذا الأمر من باب الحرص علىٰ المسلمين، وتحذيرهم من المفسدين. . !!

وإن من أخطر مايعرض للإنسان ويُحبط عمله: إرادته العمل انتصاراً لنفسه أو لفئته، دون أن يقصد بذلك وجه الله عز وجل، قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالىٰ: «ومِن أظهر التعيير: إظهار السوء وإشاعته في قالب النصح، وزعم أنه إنما يحمله علىٰ ذلك العيوب إما عامًا أو خاصًا، وكان في الباطن إنما غرضه: التعيير والأذىٰ، فهو من إخوان المنافقين الذين ذمهم الله في كتابه في مواضع، فإن الله ذم من أظهر فعلاً وقولاً حسنًا وأراد به التوصل إلىٰ غرض فاسد يقصده في الباطن، وعد ذلك من خصال النفاق»(١).

إن روح الاستهتار والعبث بأعراض المسلمين آفة خطيرة، ومزلق عظيم يؤدي بالإنسان إلىٰ مهلكة لا قبل له بها، ولهذا اشتد نكير النبي ﷺ علىٰ من

= الله أكبر! هكذا يكون الأدب مع علماء الأمة. . !! قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «يجب علىٰ المسلمين بعد موالاة الله ورسوله: موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصًا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدىٰ بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون علىٰ هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماؤها شرارها، إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا» مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٢٣٢).

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير لابن رجب الحنبلي (ص ٤٤).

اتصف بهذه الصفة، فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تُعيِّروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله!**»(١).

موقف حازم ووعيد زاجر يملأ النفس خوفًا وحذرًا، ويُقرر مبدأ عظيمًا من مبادئ الإسلام العظيمة، ألا وهو: «حفظ أعراض المسلمين» وقد تواترت النصوص الشرعية لتقرير هذه القاعدة الكبرى في دين الإسلام، ومنها:

قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [**الأحزاب**: ٥٨].

وعن أبي بكرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا...**»(٢).

ونظر عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمكِ وأعظم حرمتكِ؛ والمؤمن أعظم حرمة منكِ!»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن رقم (٢٠٣٢)، وحسنه الألباني في غاية المرام (ص٢٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (٣/ ٥٧٣)، وفي كتاب: المغازي، باب حجة الوداع (٨/ ١٠٨)، وفي كتاب الأضاحي باب من قال الأضحى يوم النحر (١٠/ ٧)، وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٣/ ٤٢٤)، ومسلم في كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الأموال والأعراض والأموال (٣/ ١٣٠٥ - ١٣٠٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ماجاء في تعظيم المؤمن رقم (٢٠٣٢)، وحسنه الألباني في غاية المرام (ص ٢٤٩).

نصوص شريفة في غاية العظمة والإحكام، تدل على عظيم منزلة المؤمن، وأن الاستطالة على حرمته من الكبائر المستبشعة التي لا ترضي الله سبحانه وتعالى.

وعجبًا بعد هذا التبيين أن يكون من الناس من لا يُبالي، فيطوي في قلبه أذية المسلمين، ويُصر على تتبع عوراتهم، ويصبح ديدنه وهجِّيراه النظر إلى سقطات الناس وإشاعتها بين الملأ، والعجيب أن فرحته تزداد إذا عثر على زلة من كبير، كأحد العلماء أو كبار الدعاة. . . !.

وإن من أخطر الأمراض القلبية: الشعور بالكمال والاستعلاء على الآخرين وازدرائهم، والنظر إليهم نظرة دونية، يعتقد من خلالها أن مخالفيه مليئون بالعيوب والمثالب، لا يسلمون من كبير تقصير وزلل، بينما هو قاب قوسين أو أدنى من الكمال كما يظن!!

والخلفية المنطقية وراء هذا التصور هي: العُجبُ والكبر الذي يعمر قلب ذلك الإنسان!

وقد قال الرسول المصطفى ﷺ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال،**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٧، ٣١١، ٣٦٠)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله (٤/ ١٩٨٦)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ماجاء في شفقة المسلم على المسلم (٤/ ٣٢٥) (١٩٢٧)، وقال: حسن غريب.

الكبر: بطر الحق، وغمط الناس»(١).

وقال الإمام عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «لا أعلم في المصلين شراً من العُجب»(٢).

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «ما من أحد أحب الرياسة إلا حسد وبغىٰ وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير»(٣).

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ إلىٰ نكتة لطيفة حيث قال: «فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة بحسب إمكانها، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه علىٰ هواه، ويعادي من يُخالفه في هواه، وإنما معبوده: ما يهواه ويريده»(٤).

الستر على المسلمين:

ثم (اسأل) هذا المرء العيابة: هب أن ما تخبر به وتشيعه حقًا... ألم يأمرنا ربنا سبحانه وتعالىٰ بعدم إشاعة السوء بين المؤمنين...؟!

قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النور: ١٩].

ألم يأمرنا رسول الله ﷺ بالستر على المسلمين..؟! عن أبي هريرة ـ رضي

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥١، ٣٩٩، ٤١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (١/ ٩٣)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر (٤/ ٣٦١) (١٩٩٩)، وقال: حسن صحيح غريب.
(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٧).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٤٣).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣٢٤).

الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يستر عبدٌ عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**»[١].

عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أقال مسلمًا أقاله الله عثرته**»[٢].

وعن عائشة بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالىٰ عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود**»[٣].

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «ذوو الهيئات الذين يقالون عثراتهم الذين ليسوا يعرفون بالشر فيزل أحدهم الزلة»[٤].

وقال الإمام العز بن عبد السلام ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «لو رفعت صغائر الأولياء إلىٰ الأئمة والحكام لم يجز تعزيرهم عليها، بل يقبل عثرتهم ويستر زلتهم، فهم أولىٰ من أقيلت عثرته وسترت زلته»[٥].

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «الظاهر أنهم ذوو الأقدار بين الناس من الجاه والشرف والسؤدد، فإن الله تعالىٰ خصهم بنوع تكريم وتفضيل علىٰ بني جنسهم، فمن كان مستوراً مشهوراً بالخير حتىٰ كبا به جواده، ونبا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب بشارة من ستر الله عيبه في الدنيا، بأن يستر عليه في الآخرة (٤/ ٢٠٢) رقم (٢٥٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٢)، وأبو داود في كتاب البيوع، باب في فضل الإقالة (٣/ ٢٧٤)، وابن ماجه في كتاب التجارات، باب الإقالة (٢/ ٧٤١)، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٦)، وأبو داود في كتاب الحدود، باب في الحد يشفع فيه (٤/ ١٣٣)، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ كتاب الأشربة والحد فيها، باب الإمام يعفو عن ذوي الهيئات (٨/ ٣٣٤).

(٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٥٠).

غضب صبره، وأديل عليه شيطانه، فلا تُسارع إلىٰ تأنيبه وعقوبته، بل تقال عثرته ما لم يكن حداً من حدود الله، فإنه يتعين استيفاؤه من الشريف كما يتعين أخذه من الوضيع.

وهذا باب عظيم من أبواب محاسن الشريعة الكاملة وسياستها للعالم، وانتظامها لمصالح العباد في المعاش والمعاد»(١).

وقال الإمام الآجري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في ذكر صفات العالم: «لا يؤاخذ بالعثرات، ولا يُشيع الذنوب عن غيره، ولا يقطع بالبلاغات، ولا يُفشي سر من عاداه، ولا ينتصر منه بغير حق، ويعفو ويصفح عنه، ذليل للحق، عزيز عن الباطل، كاظم للغيظ عمن آذاه»(٢).

ثم أقول أيضاً لذلك المرء العيابة: هب أن ما تخبر به حقًا، فهل سلمت أنت من الزلل والخطل..؟!

قبيح من الإنسان أن ينسىٰ عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختفىٰ
ولو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها قد اكتفىٰ

قال الإمام أبو حاتم ابن حبان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «الواجب علىٰ العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه ولم يُتعب قلبه، فكلما اطلع علىٰ عيب لنفسه هان عليه ما يرىٰ مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه، وتعذَّر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه، ومن

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٩).
(٢) أخلاق العلماء (ص ٥٤).

عاب الناس عابوه»(١).

قال الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «أدركت بهذه البلدة ـ يعني: المدينة النبوية ـ أقواماً ليس لهم عيوب فعابوا الناس فصارت لهم عيوب. وأدركت بهذه البلدة أقواماً كانت لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس، فنسيت عيوبهم»(٢).

ونظيره قول أبي عبد الرحمن السلمي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول: سمعت زاذان المدايني يقول: رأيتُ أقوامًا من الناس لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس، فستر الله عيوبهم وزالت عنهم تلك العيوب، ورأيت أقوامًا لم تكن لهم عيوب اشتغلوا بعيوب الناس، فصارت لهم عيوب»(٣).

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «فطوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرَّغ لعيوب الناس، هذا من علامة الشقاوة، كما أن الأول من أمارات السعادة»(٤).

وقال ابن المقفع: «من أشد عيوب الإنسان، خفاء عيوبه عليه، فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفي عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال محاسن غيره التي لا يُبصر أبدًا»(٥).

وقال ابن الأعرابي: «قال بعض الحكماء: وعائب يعيب الناس بفضل عيبه، ويبغضهم بحسب بغضه، ويرفع عوراتهم ليكونوا شركاء في عورته. لا شيء أحب

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ١٢٥).
(٢) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي (ص ١٠٦).
(٣) عيوب النفس لأبي عبد الرحمن السلمي (ص ١٢).
(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٨).
(٥) الأدب الصغير (ص ١٧٤).

إلىٰ الفاسق من زلّة عالم، ولا إلىٰ الخامل من عثرة الشريف، ثم أنشد ابن الأعرابي:

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شراً أذيع وإن لم يعلموا كذبوا»(١)

وأخشىٰ علىٰ الإنسان الذي يفرح بزلة يقع فيها أحد من إخوانه الدعاة، ثم يُظهر الشماتة به: أن يُبتلىٰ هو بذلك عقوبة من الله سبحانه وتعالىٰ.

وقد روىٰ الإمام الزهري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ حواراً جميلاً ماتعًا بين معاوية بن أبي سفيان والمِسور بن مخرمة ـ رضي الله تعالىٰ عنهم ـ يحسن بنا ذكره، ففيه منهج أصيل للتعامل مع أخطاء الآخرين وعيوبهم.

قال الإمام الزهري: «حدثني عروة أن المسور بن مخرمة أخبره أنه وفد علىٰ معاوية فقضىٰ حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور، ما فعل طعنك علىٰ الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن. قال: لا، والله لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب عليّ. قال مسور: فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلا بينت له. فقال: لا أبرأ من الذنب، فهل تعدُّ لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد الذنوب وتترك المحاسن؟ قال: ما تُذكر إلا الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشىٰ بأن تهلك إن لم تغفر؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحق مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخير بين أمرين، بين الله وبين غيره، إلا اخترتُ الله علىٰ ما سواه، وإني علىٰ دين يُقبل فيه العمل ويُجزىٰ فيه بالحسنات، ويجزىٰ فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها. قال: فخصمني. قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلىٰ عليه»(٢).

(١) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري المالكي (٥/ ٣٨٩) رقم (٢٢٤٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠ـ ١٥١، ٣٩١ـ ٣٩٢)، وانظر: تخريج المحقق.

الذبُّ عن أعراض العلماء والدعاة:

مما تقدم تبين أنه على المسلم الصادق الورع أن يحفظ لسانه عن أعراض المسلمين، وإذا رأى من أحد العلماء أو الدعاة خطأ، فعليه أن يدعو الله له بالمغفرة ويستر عليه، ويُقدِّم له النصيحة بمحبة وإشفاق، ولا يشيع هذه الزلة ويتندر بها في مجالسه، ومن سمعناه يفعل ذلك فعلينا أن نُعرض عنه وننهاه، ونذب عن أعراض أئمتنا وإخواننا المسلمين، ولعل هذا الفعل من مقتضيات قول الله ـ عز وجل ـ في وصف المؤمنين: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾ [**المؤمنون**: ٣]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾.

[**الفرقان**: ٧٢].

قال رسول الله ﷺ: «**من ذبَّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار**»(١).

وقال رسول الله ﷺ أيضاً في حديث عظيم يأمر بالتناصر: «**ما من امرئ يخذل امرءاً مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من أحد ينصر مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يُحبّ فيه نصرته**»(٢).

وما أجمل قول الشاعر:

ولا خير فيمن ظل يبغي لنفسه ... من الخير ما لا يبتغي لأخيه

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٦١)، وصححه الألباني في غاية المرام رقم (٤٣١)، وفي صحيح الجامع رقم (٦١١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠) وأبو داود في كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، رقم (٤٨٨٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٦).

وأجمل منه وأحكم قول المصطفىٰ ﷺ : «**لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١) .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه ، فإنه يلوح له وجه تعسفه»(٢) .

وقال الشيخ جمال الدين القاسمي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «وينبغي أن يعلم الطلبة أنهم إخوان حب ، واستفادة ، وخروج من ظلمة الجهل إلىٰ نور العلم ، فليتراحموا وليتآلفوا ولا يتخالفوا ، والمودة نسب ورحم ، والأخوة في الله آكد من وشيج الرحم ، فليناضلوا عن صاحبهم بالمدافعة عنه وحفظ غيبته»(٣) .

ومن ثم فالأخبار التي تصل إلينا إذا لمحنا فيها هذه الظاهرة ، فيجب علينا أن نتوقف في تصديقها ، وإذا ثبت لنا صدقها توقفنا في إشاعتها ونشرها بين الملأ ، لعدم المصلحة من ذلك . . . وما أروع الحافظ الذهبي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ حين يقول : «كلام الأقران بعضه في بعض لا يعبأ به ، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد ، وما ينجو منه إلا من عصمه الله ، وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوىٰ الأنبياء والصديقين ، ولو شئت لسردتُ من ذلك كراريس!»(٤) . قعَّد الإمام الذهبي هذه القاعدة الجليلة المتينة في معرض حديثه عن رجال الحديث ورواته .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦ ، ٢٠٦ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩) ، والبخاري في كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١/ ٥٦) (١٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل علىٰ أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه (١/ ٦٧) رقم (٤٥) .

(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص ٨٢) .

(٣) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب (ص ٢٤) .

(٤) ميزان الاعتدال (١/ ١١١) .

وليس بعيداً عن هذه القاعدة في هذا العصر كلام الدعاة والمصلحين بعضهم في بعض، وهو ناتج في كثير من الأحوال بسبب التحزب والمنافسة واختلاف الاتجاهات الحركية، والإنصاف عزيز، ولهذا يجب ألاّ يُعبأ بتلك الأخبار إذا لاحت عليها هذه الآثار المحزنة!! ومن كلام أبي حامد الغزالي الذي هذبه ابن قدامة المقدسي ـ رحمهما الله تعالىٰ قوله ـ: «إنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع ذلك غالبًا بين الأقران والأمثال والأخوة وبني العم؛ لأن سبب التحاسد توارد الأغراض علىٰ مقاصد يحصل التناقض فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذلك ترىٰ العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف، ولا يحسد البزاز إلا أن يكون سبب آخر، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر.

فأصل العداوة: التزاحم علىٰ غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه علىٰ الجاه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يُفاخر بها»[1].

أهمية التربية:

تنقية القلب من الغل والحقد يحتاج إلىٰ ترويض وتربية وطول مجاهدة ومراقبة.. وإن من أعظم ما يجلو صدأ القلب ويُطهره من أدران الفساد، تعلقه بربه سبحانه وتعالىٰ، وتلاوة كتابه الذي أنزله نوراً ورحمة لعباده المؤمنين.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص ٢٤٠)، وانظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٢٠٧).

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : «وكل من القلب والبدن محتاج إلىٰ أن يتربىٰ فينمو ويزيد ، حتىٰ يكمل ويصلح ، فكما أن البدن محتاج إلىٰ أن يزكو بالأغذية المصلحة له ، والحمية عما يضره ، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ومنع ما يضره ، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك ، ولا سبيل له إلىٰ الوصول إلىٰ ذلك إلا من القرآن ، وإن وصل إلىٰ شيء منه من غيره فهو شيء يسير لا يحصل له به تمام المقصود»(١) .

والمحاضن التربوية مطالبة بضرورة العناية بتعميق مبدأ الأخوة والمحبة ، وتربية الشباب علىٰ صفاء النفس وطهارة القلب وتقدير العلماء والدعاة ، وصدق العمل بمقتضىٰ شرع الله ـ عز وجل ـ ، والتجرد الكامل لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ، وتربية الشباب بالقدوة الحسنة من أجلِّ ما ينبغي أن يعتني به العلماء وطلاب العلم والمربون .

وأشير أخيراً إلىٰ أن ما تقدم لا يعني النهي عن تصحيح الأخطاء والتنبيه عليها ، وتقويم الآراء والتوجهات ، بل أطالب بذلك ، ولكن بالضوابط الشرعية المقررة عند سلفنا وعلمائنا الأفاضل ـ رضي الله تعالىٰ عنهم ـ : «فمن تبادُلِ النقد فِي ساحة المودة علىٰ بساط الصفاء : يكون الكمال»(٢) .

وما أحوج الصحوة الإسلامية المعاصرة إلىٰ حوار علمي هاديء ، بدل أن نتقاذف التهم ونتقاتل بالألسن ، وحينما يفقد الإنسان لسان المنطق والإقناع ؛ فإنه

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٤٦) .
(٢) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب (ص ٤٦) .

يلجأ إلىٰ لسان التشهير والتقريع!! قال الأستاذ محمد قطب ـ حفظه الله ـ: «إن تصحيح المفاهيم وتصحيح المنهج أمر ضروري للحركة الإسلامية دون شك، وما تستطيع الحركة أن تثمر ثمرتها المرجوة إن لم تعرف الطريق الصحيح وتتوجه إليه.

ولكن محاولة التصحيح بالتنابذ والفرقة، والتدافع بالمناكب، والجدل الدائم الذي يحاول فيه كل فريق تسفيه الآخرين وتجريحهم والنيل منهم، كل ذلك جهد ضائع بلا ثمرة، إلا الثمرة النكدة التي يتلقفها الشيطان!.

إنما يكون التصحيح بالبيان الهادئ الهادف، وإبراز الدليل الشرعي الذي تبنىٰ عليه الأحكام، مع التفقه في دين الله، قبل إصدار الحكم الذي يتشبث به صاحبه ويفاصل الناس عليه!.

وحين لا نتعلق بذواتنا، وحين يكون الحق أعز علينا من أنفسنا، ويكون وصولنا إلىٰ الحق عن تدبر ودراسة وبصيرة، ستنجاب الغاشية، وتتضح الرؤية، ويستبين الطريق، وهو ما نعتقد أن الأمور ستصير إليه في النهاية بعون الله وتوفيقه»[(١)].

وقديمًا قال بعض العلماء: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خصال: فقهًا في الدين، وزهادة في الدنيا، وبصراً بعيوبه»[(٢)].

* * *

(١) الصحوة الإسلامية (ص ٧٩ ـ ٨٠).
(٢) الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك (ص ٩٥ ـ ٩٦).

الخاتمة

وفي الختام: فإني أضع يدي على بعض أدوائنا، أتلمسها تلمس المحب المشفق الذي يُريد الخير والعز لأمته.

وأخشى أني كنت قاسيًا بعض الشيء في أكثر من موضع، ولكن عذري كما قال الشاعر:

فَقَسا ليزدجروا، ومن يك حازمًا   فَلْيقسُ أحيانًا على من يَرْحمُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقطع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين»[(١)].

ومن البدهي أن الصالحين مهما بلغت منازلهم ليسوا ملائكة معصومين، بل هم بشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وتصويب الأخطاء وتقويمها ضرورة عملية، وممارسة ملحة لاستقامة البناء ونضوجه، وما لم نصارح أنفسنا بأخطائنا، ثم نجدّ في درئها وعلاجها، فإننا سوف نتحرك في أماكننا ولا نتجاوزها إلى غيرها، هذا إذا لم نتراجع إلى الوراء، ونتآكل شيئًا فشيئًا!

ومواجهة النفس والحوار معها ليس ضرورة فكرية فحسب؛ بل ضرورة من أجل البقاء، فبالحوار تتجدد الأفكار وتنمو، ويسقط كل زائف ودخيل.

إذًا لكي ننتج، وننتج بعمق لابد من التفكير - أعني أن يُفكر الإنسان بعقله هو لا بعقل غيره - ولن يحيا الإنسان حياة مستقيمة إلا إذا كان يفكر

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٣).

ويتبصر . . . وينطلق في شتىٰ شؤونه بقناعات راسخة، أو علىٰ الأقل بقناعات راجحة، وأما الإنسان الميت فهو الذي لا يُفكر حتىٰ لو كان يبدو حيًا . . . !

ومن اليسير جداً علىٰ الإنسان أن يقبل كل ما يُطرح ويُقال، ثم يسير وراء القافلة بآلية ساذجة، ولكن! من الصعب جداً أن يُفكر ويتأمل بوضوح، ويزن الأمور بموازين علمية متكاملة، ثم يقف مواقف مستقلة مبنية علىٰ تصورات ناضجة ومقنعة، وشتان بين النهايتين اللتين ستقود إليهما طريقة التفكير والبحث! ويبدو جليًا أن السواد الأعظم من الناس يميلون إلىٰ الصنف الأول، فهم يألفون كل ما يطرح، ولا يُحسنون التصرف مع الأحداث وتقويمها تقويمًا منهجيًا متميزاً.

ولذا كان لزامًا علينا أن نقف مع أنفسنا كثيراً، وندع الثقة الكاملة في ذواتنا جانبًا، ثم نعيد النظر في أطروحاتنا بكل صراحة ووضوح، وكما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «وأيضًا ـ فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان علىٰ ما لا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه»(١).

وإن التحرر من تقديس الذوات والأبنية الحزبية والتخلص من آسارها، يفتح أمام الإنسان آفاقًا رحبة من العطاء الفكري والمعرفي، ويدفعه إلىٰ الإبداع المتميز والإنجاز المستمر، بعيداً عن الصراعات الكلامية والمحاورات البيزنطية.

ولن نكون كذلك إلا حينما يكون ولاؤنا للمنهج الرباني الكريم مقدمًا علىٰ ولائنا للرجال والفئات، ومن أهم أسباب الفشل المتكرر الذي تعاني منه الأمة؛

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠).

أن نضع رؤوسنا في الرمال ونتغافل عن أخطائنا .

إننا لسنا في حاجة إلىٰ الثناء والمديح ، وتعميق الغثائية ونشرها ، والخضوع لسطان الهوىٰ ، والاستسلام لتبادل المجاملات التي تؤدي إلىٰ الإنهاك الفكري ! ولكننا في حاجة ماسة إلىٰ كلمة صادقة ، ومكاشفة مخلصة ، تتجلىٰ فيها علامات الرحمة ، وآيات المحبة والإخاء ، والرغبة الجادة لتسديد الخلل ، ودرء النقص ، للوصول بالعمل الإسلامي إلىٰ مرحلة النضوج والتكامل .

إن من أخطر المشكلات التي تعاني منها الصحوة الإسلامية : التصدع الداخلي في صفوفها ، الذي أنتج مشكلة الفرقة والتنازع ، ومن أبرز إفرازات هذه الظاهرة : قصور بيِّن في توظيف الطاقات توظيفًا حيًا متكاملاً ، وما هذا الخلل الذي تكلمت عنه في هذه الرسالة إلا أثر من آثار هذه المشكلة .

وكثيراً ما كنت أسأل نفسي : ما سر هذه البلاء الذي تعاني منه أمتنا؟ !

ما سر هذا التدابر والتفرق . . . ؟ !

ثم أقول : لعل سره في قلة العلم والتثبت ، وغياب الحكمة والبصيرة ، والنفس إن لم يكن لها حارس من دين ومن عقل بصير ، وحكمة عميقة ، تفلتت من عقلها وصارت تتخبط في كل مهلكة . . ! !

وأقول لشباب الصحوة الإسلامية الأماجد : أتدرون من الذي يفرح بهذا التفرق وينعم . . . ؟ !

إنهم أولئك المنافقون وأشياعهم من دهاقنة الفساد الذين أجلبوا علينا بخيلهم ورجلهم ، وبذلوا قصارىٰ جهدهم حربًا علىٰ دين الإسلام وأهله ، وهم يعلمون يقينًا أن هذه الأمة إذا وحدت صفوفها وترابطت فروعها ، فلا يمكن أن تقف في وجهها قوة أرضية ـ بإذن الله تعالىٰ ـ مهما بلغت إمكاناتها وقدراتها .

إن ذبول المسلمين واسترخاءهم وتسلط القوى الاستعمارية على مصائرهم وما يتبع ذلك من مضاعفات، إنما هو من المسلمين أنفسهم، لما تفرقوا وتشرذموا. . . !

ولهذا كان من أوجب الواجبات علينا: أن ننظر في واقعنا حق النظر، وأن تكون لدينا قراءة فحصية مستفيضة وواعية بكل أناة وروية لأحوالنا، ثم نسعى بكل جد لتوحيد الصفوف، ولمِّ الشعث، وسلِّ سخيمة النفوس.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا**﴾ [**آل عمران**: ١٠٢، ١٠٣].

وقال الله تعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [**آل عمران**: ١٠٥].

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ [**آل عمران**: ١٩].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس، فيُغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا**»(٢).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٣، ٣٣٦)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان (٢٨١٢) (٤/ ٢١٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٨، ٣٢٩، ٣٨٩، ٤٠٠، ٤٦٥، ٤٨٣)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء (٢٥٦٥) (٤/ ١٩٨٧).

وقال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»(١).

وقد توافرت النصوص الشرعية في تقرير هذا الأصل العظيم وإرساء دعائمه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «وهذا الأصل العظيم وهو: الاعتصام بحبل الله جميعًا وأن لا يُتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة.

وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة، بل وفي غيرها، هو: التفرق والاختلاف؛ فإنه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم، وإن كان بعض ذلك مغفوراً لصاحبه لاجتهاده الذي يغفر فيه خطؤه، أو لحسناته الماحية، أو لتوبته، أو لغير ذلك، لكن يُعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام، ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسُنة والجماعة، ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره، وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقديم العمل به هو الإجماع، فإن الله لا يجمع هذه الأمة علىٰ ضلالة»(٢).

ومن جميل ما قيل في هذا الباب من الشعر، قول أحد الحكماء:

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٤)، والترمذي كتاب صفة القيامة، باب رقم (٥٦)، وحديث رقم (٢٥٠٩) (٤/ ٦٦٣)، وقال الترمذي: وهذا حديث صحيح»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٣٥٩).

(٢) خلاف الأمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة لابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (٣/ ١١٧).

انفوا الضغائن بينكم وتواصلوا ... عند الأباعد والحضور الشهَّدِ
فصلاح ذات البين طول بقائكم ... ودماركم بتقطع وتفرُّدُ
إن القداح إذا جُمعن ورامها ... بالكسر ذو حنق وبطش أيِّدِ
عَزَّت ولم تكسر، وإن هي بُددت ... فالوهن والتكسير للمتبدِّدِ
فلمثل ريب الدهر أُلِّف بينكم ... بتعاطف وتراحم وتودد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم ... لمسود منكم وغير مسوَّدِ

وقال الشاعر الآخر:

النمل تبني قراها من تماسكها ... والنحل تجني رحيق الشهد أعوانا

إذًا البداية القوية العملية الجادة لنهضة الأمة من كبوتها هي: الاعتصام بحبل الله جميعًا، والتعاون على البر والتقوى، **وفق الأسس والضوابط الشرعية المقررة في كتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ ومنهج السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين** ثم نبذ كل الشعارات التي تفرِّق الصفوف وتفسد القلوب، ولقد أثبتت العقود الأخيرة: إفلاس الشعارات والأطروحات الجاهلية بمختلف اتجاهاتها الفكرية ونحلها السلوكية، ولم يبق إلا أن تفيء الأمة إلى روح الإسلام وريحانه، تستقيه من مصادره الأصيلة ومنابعه الكريمة.

ولن نصل إلى هذه المنزلة الجليلة السامقة إلا بفضل الله عز وجل وكرمه.. ثم بعمق وعينا بحقيقة الموقف الذي تقفه الصحوة الإسلامية المعاصرة، والتحدي الكبير الذي تواجهه ونصرنا لرايتها - بعد ذلك - بكامل التجرد والإخلاص، وعندها يتحقق وعد الله - سبحانه وتعالى - الذي لا يتخلَّف: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [**العنكبوت**: ٦٩].

أما إذا تخاذلنا وفرَّطنا وشغلتنا أموالنا وأهلونا؛ فوعيد الله لا يتبدل: ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ [**محمد**: ٣٨].

وختامًا: ما كتبت هذه الورقات إلا وأنا أعلم أني لست أهلاً لذلك، ولكن الذي دفعني إلىٰ ذلك هو رغبتي في إبراء الذمة ونصيحة الأمة، فإن: «أعظم ما عُبد الله به نصيحة خلقه»(١)، و«ما تصدَّق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها، ونعمت الهدية كلمة من الخير يسمعها الرجل ثم يهديها إلىٰ أخ له...»(٢).

فأسأل الله - عز وجل - بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يوحِّد بين صفوفنا علىٰ السنة، ويؤلف بين قلوبنا علىٰ الخير، ويعيذنا من نزغات الشيطان، ويثبتنا علىٰ القول الثابت في الدنيا الآخرة.

كما أسأله - عز وجل - أن يعيذنا من فتنة القول كما يعيذنا من فتنة العمل.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم

* * *

(١) الرسالة القبرصية (ص ٢٣).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٣٩).

فهرس الموضوعات

الموضـــوع الصفحـــة

الموضـــوع | الصفحـــة